أبحاث

فقه التدبر في القرآن الكريم وأثره في تنمية الملكة الفقهية والتفسيرية

د. محمد فتحي محمد العتربي(*)

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة:

الحمد لله الذي أنزل الكتاب على عبده ليكون للعالمين نذيرًا، أرسل الرسل وأنزل الكتب حتى لا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل، ليهلك من هلك عن بينة ويحيى من حي عن بينة.

والصلاة والسلام على النبي الأكرم بعثه ربه شاهدًا ومبشرًا ونذيرًا وداعيًا إلى الله بإذنه وسراجًا منيرًا.

وبعد ،،،،

القرآن الكريم كتاب الله ﷻ، هو سبحانه المتحدث به، علمه هو، المحيط بكل شيء، قال تعالى: ﴿لَـٰكِنِ اللّهُ يَشْهَدُ بِمَا أَنزَلَ إِلَيْكَ أَنزَلَهُ بِعِلْمِهِ وَالْمَلآئِكَةُ يَشْهَدُونَ وَكَفَى بِاللّهِ شَهِيداً﴾ (النساء: ١٦٦)، هو الهادي إلى الرشاد، والمنقذ من الضلال، روى الترمذي في سننه من حديث الحارث بن عبد الله الهمداني صاحب عليّ

(*) دكتوراه الشريعة الإسلامية - كلية دار العلوم – جامعة القاهرة.

(كرم الله وجهه) قال: مررت في المسجد فإذا الناس يخوضون في الأحاديث فدخلت على عليّ ﷷ فأخبرته فقال: أوقد فعلوها؟ قلت: نعم. قال: أما إني سمعت رسول الله ﷺ يقول: أما إنها ستكون فتن. قلت: فما المخرج منها يا رسول الله؟ قال: "كتاب الله فيه نبأ ما قبلكم، وخبر ما بعدكم وحكم ما بينكم، هو الفصل ليس بالهزل، من تركه من جبار قصمه الله، ومن ابتغى الهدى في غيره أضله الله هو حبل الله المتين وهو الذكر الحكيم وهو الصراط المستقيم وهو الذي لا تزيغ به الأهواء ولا تلتبس به الألسنة ولا يشبع منه العلماء ولا يخلق على كثرة الرد، ولا تنقضي عجائبه، هو الذي لم تنته الجن إذ سمعته حتى قالوا: إنا سمعنا قرآنًا عجبًا يهدي إلى الرشد فأمنا به، من قال به صدق ومن عمل به أجر، ومن حكم به عدل، ومن دعا إليه هدي إلى صراط مستقيم"(١).

جعله الله كفاية للناس قال تعالى: **﴿أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَى عَلَيْهِمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَى لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾** (العنكبوت: ٥١)، فهو كالنبي المقيم من بعده ﷺ والمحجة البيضاء والقادر بما وضع الله فيه من صفاته على أن يجدد النبوة ويجعلها حاضرة بين الناس.

وبتلك السمات كان القرآن قادرًا على توليد العلوم وتفتيق الملكات التي تستخرج المكنونات، قال تعالى: **﴿فَلا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ، وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَّوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ، إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ، فِي كِتَابٍ مَّكْنُونٍ، لا يَمَسُّهُ إِلا الْمُطَهَّرُونَ، تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ﴾** (الواقعة: ٧٥- ٨٠).

إن البحث عن فقه تدبر القرآن يهدف إلى تجاوز القراءة التجزيئية للكتاب تحت

---

(١) أخرجه الترمذي كتاب فضائل القرآن باب (١٤) ما جاء في فضل القرآن: ٥/١٧٢- ١٧٣ رقم: ٢٩٠٨ .

دعوى البحث عن الدليل والشاهد لأن قراءة المقتسمين الذين جعلوا القرآن عضين - كما قال تعالى: ﴿كَمَا أَنزَلْنَا عَلَى الْمُقْتَسِمِينَ، الَّذِينَ جَعَلُوا الْقُرْآنَ عِضِينَ، فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ، عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ (الحجر: ٩٠- ٩٣) - تفقد القارئ كثيرًا من أدوار وأسرار ومكنونات القرآن.

إن البحث يؤكد ما للقرآن من خصائص تتنوع وتتعدد بتعدد زوايا النظر وتنوع المتدبرين وهي غير قابلة للحصر مع أننا سنقف عند الأثر الفقهي والتفسيري لأن القرآن مطلق والمتدبر نسبي وليس من شأن النسبي أن يحيط بالمطلق أو يحصر صفاته وخصائصه فقط لا يعدم القارئ والتالي المتدبر للقرآن كرمه وفتحه ونصره وهداه.

وما دفعني إلى هذا الموضوع الدعوة الإلهية لتدبر القرآن في آيات الذكر الحكيم وأحاديث سيد المرسلين ودعوات السادة العلماء والمشايخ الراسخين في العلم من أعلام الفكر الإسلامي في المعهد العالمي للفكر الإسلامي والمعنيين بالدراسات القرآنية.

الأمر الذي دفعني إلى إعادة النظر بصورة جديدة تحاول توسيع الموضوع وتناوله تناولاً جديدًا موسعًا.

وسينتظم البحث في مقدمة وتمهيد وأربعة مباحث وخاتمة بها أبرز النتائج وقائمة بالمصادر والمراجع وسيعتمد البحث على المنهج الاستقرائي (الجزئي) التحليلي الاستنباطي، من كتابات العلماء الأجلاء قديمًا وحديثًا والتي يأتي في مقدمتها:

- أثر تعلم القرآن في تنمية الملكة الفقهية د/ الوليد بن عبد الرحمن آل فريان على الموسوعة الشاملة بشبكة الإنترنت.

وهو بحث محكم قدم لملتقى الجمعيات الخيرية بالرياض، رمضان ١٤٢٩هـ.

- أفلا يتدبرون القرآن أ.د/ طه جابر العلواني، ط١، دار السلام، القاهرة، ٢٠١٠م.

وسلسلة كتبه الخمسة تحت عنوان دراسات قرآنية والتي أصدرتها مكتبة الشروق الدولية بالقاهرة مؤخرًا.

أما خطة البحث فهي كالآتي:

المقدمة: فضل القرآن وأبرز خصائصه، وخطة البحث، ومنهجه، وأبرز الدراسات السابقة.

التمهيد: مدخل تأسيسي للمصطلحات:

فقه التدبر: معناه – أهميته – وسائله.

الملكة الفقهية.

الملكة التفسيرية.

المبحث الأول: التدبر وأثره في التفقه وفيه مطلبان:

المطلب الأول: التدبر والحرص على التفقه.

المطلب الثاني: التدبر والمبادرة إلى التفقه.

المبحث الثاني: التدبر وأثره في معرفة الأحكام الفقهية، فيه مطلبان:

المطلب الأول: التدبر وإيجاد البيئة الفقهية.

المطلب الثاني: التدبر ووسائل بيان الأحكام الفقهية.

المبحث الثالث: التدبر وأثره في معرفة (المقاصد الشرعية والقواعد الفقهية ومناهج الاستنباط) وفيه ثلاثة مطالب:

المطلب الأول: أثر التدبر في معرفة المقاصد الشرعية.

المطلب الثاني: أثر التدبر في معرفة القواعد الفقهية.

المطلب الثالث: أثر التدبر في معرفة المناهج الاستنباطية.

المبحث الرابع: أثر التدبر في تنمية الملكة التفسيرية وفيه مطلبان:

المطلب الأول: أثر التدبر في التفسير.

المطلب الثاني: أثر التدبر في تنمية الملكة التفسيرية (وتكوين المفسر).

الخاتمة:

وأبرز النتائج.

قائمة المصادر والمراجع.

قائمة الموضوعات.

* * *

التمهيد

مدخل تأسيسي للمفاهيم والمصطلحات

قبل أن نقف أمام الأثر الكبير الذي يفيض القرآن به على المتدبرين مهما تعددت نظراتهم وتنوعت مشاربهم العلمية واختلفت أسقفهم المعرفية نحدد بعض المصطلحات والمفاهيم المنهاجية وهي:

أولاً: فقه التدبر:

- الفقه لغة: الفهم والفطنة وإدراك علم الشيء.

وقيل: التوصل إلى علم غائب بعلم شاهد فهو أخص من العلم.

وقيل: هو العلم بالشيء والفهم له ونقل إلى علم الفروع في الشريعة بغلبة الاستعمال(١).

- الفقه اصطلاحًا: العلم بالأحكام الشرعية العملية المكتسبة من أدلتها التفصيلية(٢).

---

(١) لسان العرب لابن منظور المصري (ت٧١١هـ): ٥٢٢/١٣ طبعة دار صادر بيروت والقاموس المحيط للفيروز آبادي (ت٨١٦): ٢٩١/٤، ط٢، الهيئة المصري العامة للكتاب، سنة ١٤٠٠هـ.

(٢) القاموس الفقهي سعدي أبو حيب: ٢٨٩، ط١، دار الفكر، دمشق، ٢٠٠٣م، (إعادة).

- التدبر لغة: النظر في عواقب الأمور والتفكر فيها وتدبر الكلام النظر في أوله وآخره ثم إعادة النظر مرة بعد مرة⁽¹⁾، ودبر الأمر ساسة ونظر في عاقبته، والحديث رواه عن غيره، وتدبر الأمر وفيه دبره ويقال: عرف الأمر تدبرًا: بآخره⁽²⁾.

وتدبر القرآن: تفهم معاني ألفاظه والتفكر فيما تدل عليه آياته وقيل: تحديق ناظر القلب إلى معانيه وجمع الفكر على تدبره وتعقله، وقيل معناه: هو التفكر الشامل الواصل إلى أواخر دلالات الكلم ومراميه البعيدة⁽³⁾. وقال الطبري رحمه الله – في قوله تعالى: **﴿كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِّيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُوا الْأَلْبَابِ﴾** (ص:٢٩) ليتدبروا حجج الله التي فيه وما شرع الله فيه من الشرائع فيتعظوا ويعملوا به⁽⁴⁾.

ويمكننا أن نعرف التدبر اصطلاحًا بأنه: التأمل والتفكر والتبصر المؤدي إلى الوصول إلى آخر دلالات الألفاظ ولطيف الخطاب مع الانتفاع بالعظة والظفر بالفكرة واستخراج العبرة.

وبإضافة التدبر إلى كلمة (فقه) نصل إلى أن (فقه التدبر) يعني: فهم وإدراك الأحكام المتعلقة بعملية التأمل والتفكر في كلام الله تعالى الموصلة إلى الإفادة والعلم بما في القرآن من عظات وعبر ولطائف.

ولما كان حديثنا في هذا البحث عن أثر التدبر في تنمية الملكة الفقهية والتفسيرية فإننا سنقف بعون الله وتوفيقه عند الآثار المتعلقة بالتفقه والتفسير أي الآثار التي تعين الفقيه على تنمية ملكته الفقهية وتعين المفسر على تنمية ملكته التفسيرية. لكن ما المراد

---

(١) لسان العرب السابق: ٢٧٣/٤، والتعريفات للجرجاني: ٧٦ .

(٢) المعجم الوسيط: ٢٧٨- ٢٧٩ طبعة مصورة بدار العلوم ١٩٩٣م.

(٣) مفتاح دار السعادة لابن القيم: ٢١٦، ط١، دار الكتب العلمية، بيروت (ب ت)، والتبيان في أقسام القرآن لابن القيم (ت٧٥١هـ): ١٤٥، ط١ دار المعرفة، بيروت، سنة ١٣٥٢هـ تعليق محمد حامد الفقي.

(٤) جامع البيان في تأويل آي القرآن للإمام محمد بن جرير الطبري (٣١٠هـ): ١٥٣/٢٣ .

بالملكة عندما توصف بالفقهية أو التفسيرية.

الملكة: هي: صفة راسخة في النفس واستعداد عقلي خاص لتناول أعمال معينة بحذق ومهارة. مثل الملكة العددية الملكة اللغوية(١).

والملكة الفقهية: صفة راسخة في النفس تحق الفهم لمقاصد الكلام الذي يسهم في إعطاء الحكم الشرعي للقضية المطروحة إما برده إلى مكانه في مخزون الفقه أو بالاستنباط من الأدلة الشرعية والقواعد الكلية(٢).

ويمكن أن نطلق على تلك الملكة: البصيرة، والحكمة، والاجتهاد.

وللملكة الفقهية أنواع منها(٣):

١- ملكة تقرير القواعد الأصولية ومنهج الاستنباط المستقل.

٢- ملكة الاستنباط الفقهي على أصول الغير.

٣- ملكة التخريج الفقهي في المذهب.

٤- ملكة الترجيح الفقهي في المذهب.

٥- ملكة استخراج الأحكام في المذهب وهو ما يسمى بالقول المعتمد في المذهب.

أما الملكة التفسيرية: فهي القدرة الروحية بالنفسية الذكية المعينة على كشف المعاني والأسرار الموجودة في مكنونات الكتاب العزيز. وذلك تحقيقًا لقوله تعالى: **﴿إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ، فِي كِتَابٍ مَّكْنُونٍ، لا يَمَسُّهُ إِلا الْمُطَهَّرُونَ﴾** (الواقعة: ٧٧- ٧٩)، وهذه الملكة التفسيرية تحتاج إلى التأمل والتدبر والخشوع لجلال الله تعالى وعظمته عسى أن

---

(١) المعجم الوسيط السابق: ٩٢١- ٩٢٢، ولعلك تدرك في التعريف المعجمي تعريفًا اصطلاحيًا.

(٢) تكوين الملكة الفقهية، د/ محمد عثمان شبير: ١٧١، كتاب الأمة رقم (٧٢)، وزارة الأوقاف القطرية، سنة ١٤٢٠هـ، ١٩٩٩م.

(٣) السابق نفسه: ٦٢، وتلك الأنواع عائدة إلى عمل الفقيه وتوصيفه المهني في العملية الفقهية والتي اعتمدها المؤرخون لتاريخ الفقه في بيان طبقات المجتهدين ومراتبهم، انظر إعلام الموقعين لابن القيم: ٤/ ٢١٢ .

يظفر بالمقصود من التنزيل، بعد التهيؤ بالتطهير ظاهرًا وباطنًا.

ومن أعظم ما يعين المتدبر على استحضار المقصود من آيات الذكر الحكيم، معرفة أجواء التنزيل وكيف تلقى الرسول ﷺ الآيات، وكيف وقعت في نفوس الصحابة عندما سمعوها أول مرة، أضف إلى ذلك الترتيل والتلاوة والتكرار بإعادة النظر في السياقات والسور والفواصل.

هذا ومن المفردات المتعلقة بالتدبر ما يلي:

الفهم: هو العلم بمعنى الكلام بعد تأمل وهو المراد بالفقه.

البصيرة: تكامل العلم(١).

التفكر: بمعنى استعمال الفكرة والتأمل فيها(٢).

التذكر: بمعنى حضور صورة المذكور العلمية في القلب وهو من التفعل كالتبصر والتفهم والتعلم ومراده تكثر العلم بعد تحصيله بالتفكر.

التأمل: مراجعة النظر مرة بعد مرة حتى ينجلي للقلب وينكشف له ما أغلق.

الاستبصار: وهو استفعال من التبصر، وهو انكشاف الأمر وجلاؤه للبصيرة(٣).

أهمية التدبر:

وتأتي أهمية التدبر من كونه المقصود الأعظم والمطلوب الأهم من عملية التنزيل الحكيم، قال تعالى: ﴿كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِّيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ﴾ (ص: ٢٩)، ويمكن أن نجمل أهمية التدبر فيما يلي:

---

(١) انظر معجم الفروق اللغوية لأبي هلال العسكري (ت ٣٩٥): ٦٩- ٧٣، ط٣، دار الكتب العلمية، بيروت، ٢٠٠٥م، تحقيق محمد باسل عيون السود.

(٢) مفتاح دار السعادة للإمام ابن القيم – رحمه الله –، ٢١٦ وما بعدها.

(٣) تدبر القرآن، د/ سليمان السنيدي: ١٢- ١٣، ط٢، المنتدى الإسلامي ومجلة البيان، الرياض، ١٤٢٣هـ – ٢٠٠٢م، (بتصرف).

١- أن التدبر وسيلة للتفاعل الوجداني والاستجابة لأوامر الله تعالى.

٢- زيادة الإيمان، قال تعالى: **﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَاناً وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾** (الأنفال: ٢).

٣- اكتساب الخشوع المشعر بالطمأنينة والسكينة، قال تعالى: **﴿اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَاباً مُّتَشَابِهاً مَّثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ ذَلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاءُ وَمَن يُضْلِلْ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ﴾** (الزمر: ٢٣).

٤- تحصيل الهداية، قال تعالى: **﴿إِنَّ هَـذَا الْقُرْآنَ يِهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْراً كَبِيراً﴾** (الإسراء: ٩).

٥- النصيحة لكتاب الله، قاله ابن رجب في شرح حديث الدين النصيحة في جامع العلوم والحكم(١).

٦- التلذذ بخطابه (أي بخطاب القرآن)، قال الزركشي: "من لم يكن له علم وفهم وتقوى وتدبر لم يدرك من لذة القرآن شيئًا"(٢).

٧- معرفة الحلال والحرام.

٨- الشفاء المعنوي والحسي، أما المعنوي فمن الريب والشبهات، وأما الحسي فقد ثبت الاسترقاء به كرقية شرعية كما قال ابن القيم: "فالقرآن هو الشفاء التام من جميع الأدواء القلبية والبدنية فما من مرض من أمراض القلوب والأبدان إلا وفي القرآن سبيل الدلالة على دوائه وسببه والحمية منه لمن رزقه الله فهمًا في كتابه وأما الأدوية القلبية

---

(١) جامع العلوم والحكم لابن رجب الحنبلي: ١٩٣، ط١، دار بن كثير، سنة ١٤٢٩هـ، تحقيق: د/ ماهر ياسين الفحل، دمشق، بيروت، سنة ٢٠٠٨م.

(٢) البرهان في علوم القرآن للزركشي: ١٧١/٢، ط٣، دار الفكر، بيروت، ١٤٠٠هـ، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم.

فإنه يذكرها منفصلة ويذكر أسباب أدوائها وعلاجها"(١).

وسائل التدبر:

إذا كان التربويون يعرفون الاتجاه بأنه "استعداد وجداني مكتسب ثابت نسبيًا يميل بالفرد إلى موضوعات معينة فيجعله يقبل عليها ويحبذها أو يرحب بها ويحبها أو يميل عنها ويكرهها(٢). فإن الوسائل التي تجعل من التدبر اتجاهًا واستعدادًا دائمًا نحو القرآن تتلخص فيما يلي(٣).

١- تنمية محبة القرآن.

٢- التأكيد على يسر القرآن.

٣- غرس اليقين بالنص القرآني وما يحمل من دلالات إيمانية أو علمية.

٤- الإشعار الدائم بأن القرآن موجه إلى السامع أو القارئ أو المتدبر.

٥- الربط الدائم بين القرآن والواقع.

٦- التأكيد على الغاية من إنزال القرآن.

٧- التدرج في تعليم التدبر عبر دورات ودروس علمية متخصصة.

٨- التأكد على أهمية تعلم اللغة العربية.

٩- التنبيه إلى أن التدبر وسيلة لشكر نعمة القرآن واستخراج مكنوناته.

١٠- التحذير من الذنوب والمعاصي الصارفة عن التدبر.

---

(١) زاد المعاد في هدى خير العباد لابن القيم: ٣٥٢/٤، ط٨، مكتبة الرسالة ومكتبة المنار الإسلامية، بيروت، سنة ١٤٠٥هـ، تحقيق: شعيب الأرنؤوط.

(٢) أساسيات القياس والتقويم في التربية والتعليم، د/ غانم العبيدي ود/ حنان الجبوري: ٣٠٤، ط١، دار العلوم والنشر، الرياض، سنة ١٤٠١هـ.

(٣) انظر: تعليم تدبر القرآن أساليب عملية ومراحل منهاجية، د/ هاشم الأهدل: ٢٩- ٣٠، ط١، مركز الدراسات والمعلومات القرآنية بمعهد الإمام الشاطبي، جدة، سنة ١٤٢٩هـ.

المبحث الأول

التدبر وأثره في التفقه

المطلب الأول: التدبر والحرص على التفقه.

دعي القرآن الكريم قارئه وتاليه إلى النظر والتدبر ومن ثم التفقه فيما وضع الله تعالى في الكون من آيات ودلائل، فقال تعالى: **﴿قُلْ سِيرُوا فِي الأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ثُمَّ اللَّهُ يُنشِئُ النَّشْأَةَ الآخِرَةَ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾** (العنكبوت: ٢٠).

وكانت الدعوة دائمة بأنواع شتى مرة بالتعجب الإنكاري ممن يمر على الآيات دون أن يلتفت إليها ويعتبر بها، فقال تعالى: **﴿وَكَأَيِّن مِّن آيَةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ﴾** (يوسف: ١٠٥)، ومرة بالتوبيخ لأولئك الذين عطلوا وسائل الإدراك وأسباب الحس في ذواهم، فقال تعالى: **﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لا تَعْمَى الأَبْصَارُ وَلَكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾** (الحج: ٤٦)، ومرة بالإنذار والاعتبار بمن فاتوا وسبقوا من الأمم السابقة حيث أعطاهم الله تعالى السمع والبصر والفؤاد ليهتدوا ويفقهوا فما أغنت عنهم باستحقاق العذاب، قال تعالى: **﴿وَلَقَدْ مَكَّنَّاهُمْ فِيمَا إِن مَّكَّنَّاكُمْ فِيهِ وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعاً وَأَبْصَاراً وَأَفْئِدَةً فَمَا أَغْنَى عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلا أَبْصَارُهُمْ وَلا أَفْئِدَتُهُم مِّن شَيْءٍ إِذْ كَانُوا يَجْحَدُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُون﴾** (الأحقاف: ٢٦).

وفي مواضيع كثيرة يعرض الحقائق الكونية بأسلوب يطابق الحقيقة ولا يصدم الواقع الذي عليه الناس مع التسليم باختلاف العرض بين الكونيات والشرعيات، فالأخيرة من حيث الاعتقاد والأحكام لابد من وضوح الحق فيها وضوحًا تامًا قبل وفاة النبي ﷺ، وإلا فاتت فرصة التصحيح والتوضيح، أما الكونيات فيمكن أن تصحح معتقدات

الناس فيها يوم يتأهلون لذلك ويملكون الوسائل المعنية(١).

وكما كانت الدعوة موجهة للكون المنظور وجهت الدعوة للكون المسطور (القرآن الكريم) في سياقات الأحكام والأمثال والاعتبار، ففي سورة النساء يقول الله تعالى: **﴿أَفَلاَ يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ اللّهِ لَوَجَدُواْ فِيهِ اخْتِلاَفاً كَثِيراً﴾** (النساء: ٨٢)، وهو سياق الأحكام والأمر بالطاعة الكاملة لله ورسوله وضرورة رد الأمر إلى أولي العلم والاستنباط، حيث قال تعالى بعد تلك الآية: **﴿وَإِذَا جَاءهُمْ أَمْرٌ مِّنَ الأَمْنِ أَوِ الْخَوْفِ أَذَاعُواْ بِهِ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَى أُوْلِي الأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنبِطُونَهُ مِنْهُمْ وَلَوْلاَ فَضْلُ اللّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لاَتَّبَعْتُمُ الشَّيْطَانَ إِلاَّ قَلِيلاً﴾** (النساء: ٨٣).

وفي سياق القصص والأمثال من سورة المؤمنون يقول تعالى: **﴿أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا الْقَوْلَ أَمْ جَاءهُم مَّا لَمْ يَأْتِ آبَاءهُمُ الْأَوَّلِينَ﴾** (المؤمنون: ٦٨)، ويقول تعالى بعد عرض قصة داود عليه السلام وقضائه في سورة (ص): **﴿كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِّيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُوا الْأَلْبَابِ﴾** (ص: ٢٩)، وفي أواخر سورة محمد يقول تعالى: **﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا﴾** (محمد: ٢٤).

والمتأمل في هذه السياقات يجد أن الدعوة إلى التفكير والتفقه في الأحكام والأمثال ضرورة لأخذ العبر والعظات التي تصون من التردي في الأمراض والأدواء التي وقع فيها المنافقون والمشركون أولئك الذين عطلوا عقولهم وأهملوا وسائل الإدراك عندهم فلم يوجهوها ولو إلى سؤال العلماء "أولي الأمر" كما في سورة النساء، أو سؤال الذين "أوتوا العلم" كما في سورة القتال، فكان فقدان التفقه والتفكر والتدبر مدعاة إلى

---

(١) هداية القرآن في الآفاق والأنفس وإعجازه العلمي دعوة ضرورية ومنهج واجب، د/ محمد شريف: ٥٣- ٥٤، مطبعة المدينة دار السلام، مصر، سنة ١٤٠٦هـ، سنة ١٩٨٦م، (بتصرف).

الوقوع في الشبهات والمحرمات من التخلف عن الجهاد ومخالفة الرسول ونكران نعمه تعالى بإرساله ﷺ إليهم للهداية والرشاد، قال تعالى: ﴿أَمْ لَمْ يَعْرِفُوا رَسُولَهُمْ فَهُمْ لَهُ مُنكِرُونَ، أَمْ يَقُولُونَ بِهِ جِنَّةٌ بَلْ جَاءهُم بِالْحَقِّ وَأَكْثَرُهُمْ لِلْحَقِّ كَارِهُونَ﴾ (المؤمنون: ٦٩- ٧٠).

المطلب الثاني: التدبر والمبادرة إلى التفقه.

كما كانت الدعوة إلى الحرص على التفقه يأمر الله تعالى المسلمين بالتفقه والدرس والتعلم، قال تعالى: ﴿وَلَـكِن كُونُواْ رَبَّانِيِّينَ بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ الْكِتَابَ وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ﴾ (آل عمران: ٧٩)، وذلك لاكتساب الحكمة والخبرة المعينة على الوصول إلى الحق.

ثم تأتي الدعوة إلى الخروج في طلب الفقه واعتباره نفيرًا في سبيل الله متى أخلص المرء في خروجه لطلبه قيامًا بحقه وإنذارًا لقومه، قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُواْ كَآفَّةً فَلَوْلاَ نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُواْ فِي الدِّينِ وَلِيُنذِرُواْ قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُواْ إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ (التوبة: ١٢٢)﴾، ومتى أصبح الخروج جهادًا في سبيل الله تعالى هانت المشقة وترك الأهل والأوطان لأجله.

ويجعل الله تعالى في رسوله الأسوة والقدوة بالمبادرة والاستعداد لتحمل أعباء البلاغ، فنجد في القرآن عند تدبره حث القرآن على ذلك الاستعداد، يقول تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ، قُمِ اللَّيْلَ إِلا قَلِيلاً، نِصْفَهُ أَوِ انقُصْ مِنْهُ قَلِيلاً، أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلاً، إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلاً ثَقِيلاً، إِنَّ نَاشِئَةَ اللَّيْلِ هِيَ أَشَدُّ وَطْءاً وَأَقْوَمُ قِيلاً﴾ (المزمل: ١- ٦)، ففي الآيات بيان لعظم المسئولية وما تتطلبه من تهيؤ واستعداد.

بل نجد التحذير البليغ من إهمال التفقه والتعالي على الآيات والدلائل البينات لأن ذلك مدعاة إلى النكال والعذاب، قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَذَّبُواْ بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُواْ عَنْهَا

﴿أُوْلَـئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ (الأعراف: ٣٦)، وبعدها يأتي بيان آخر لمصير أولئك الذين استكبروا وبطروا، استكبروا على الرسل دعاة الهدى والعلم وبطروا الحق بتكذيب الرسل، فقال تعالى: **﴿إِنَّ الَّذِينَ كَذَّبُواْ بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُواْ عَنْهَا لاَ تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاء وَلاَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّى يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُجْرِمِينَ، لَهُم مِّن جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِن فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ﴾** (الأعراف: ٤٠- ٤١)(١).

لقد بين الله تعالى الآيات وجعلها مبينات، فقال تعالى: **﴿تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ﴾** (القصص: ٢)، وقال تعالى: **﴿وَلَقَدْ أَنزَلْنَا إِلَيْكُمْ آيَاتٍ مُّبَيِّنَاتٍ وَمَثَلاً مِّنَ الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلِكُمْ وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ﴾** (النور: ٣٤)، ويسر الله تعالى القرآن للذكر فقال: **﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾** (القمر: ١٧)، ذلك للحث الدائم على المبادرة في طلب العلم منه والتنقيب على ما فيه من الأمثال والأحكام الهادية إلى الحصول، وحق لمن تدبره وأبحر فيه أن يكون فقيهًا عالمًا(٢).

ولكي تبادر العقول نحو التدبر والتأمل واكتشاف مكنونات الكون المسطور والمنظور وضع القرآن قواعد المنهج الصحيح لتحصيل الفقه السليم وتمثلت تلك القواعد فيما يلي(٣):

أولاً: أن الحق في منظور القرآن الكريم كل ما قام على البرهان والدليل القاطع الموصل إلى العلم اليقيني الثابت البعيد عن الظن والاحتمال، قال تعالى: **﴿قُلْ هَاتُواْ**

---

(١) انظر: أثر تعلم القرآن الكريم في تنمية الملكة الفقهية، د/ الوليد آل فريان: ١١ .

(٢) أخرج الدارمي في سننه عن الضحاك أنه قال: "حق على كل من تعلم القرآن أن يكون فقيهًا"، سنن الدارمي: ٨٠/١، وذكره الخطيب البغدادي في الفقيه والمتفقه: ١٣/١. وابن عبد البر في جامع بيان العلم: ٢٠٤/٢، وانظر أثر تعلم القرآن الكريم في تنمية الملكة الفقهية السابق، ص: ١١ نفسه.

(٣) هداية القرآن في الآفاق والأنفس: ٧١- ٧٤ (بتصرف).

بُرْهَانَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ (البقرة: ١١١)، وقال تعالى: **﴿قُلْ هَلْ عِندَكُم مِّنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا إِن تَتَّبِعُونَ إِلاَّ الظَّنَّ وَإِنْ أَنتُمْ إَلاَّ تَخْرُصُونَ﴾** (الأنعام: ١٤٨).

ثانيًا: التحذير من إنزال غير اليقيني منـزلة اليقين فكما لا يرفع النظرية إلى مستوى الحقيقة، لا يجعل الحدس والتخمين بمستوى الظن والنظرية، قال تعالى: **﴿وَمَا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ إِلاَّ ظَنّاً إَنَّ الظَّنَّ لاَ يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئاً إِنَّ اللّهَ عَلَيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ﴾** (يونس: ٣٦)، وقال: **﴿وَقَالُوا مَا هِيَ إِلا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلا الدَّهْرُ وَمَا لَهُم بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلا يَظُنُّونَ﴾** (الجاثية: ٢٤)، وقال في سورة النجم: **﴿إِن يَتَّبِعُونَ إِلا الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى الأَنفُسُ وَلَقَدْ جَاءهُم مِّن رَّبِّهِمُ الْهُدَى﴾** (النجم: ٢٣).

ثالثًا: التحذير من التقليد الأعمى وراء الغير دون سند أو دليل أو اقتناع، قال تعالى: **﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنزَلَ اللّهُ قَالُواْ بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءنَا أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لاَ يَعْقِلُونَ شَيْئاً وَلاَ يَهْتَدُونَ﴾** (البقرة: ١٧٠).

رابعًا: تدريب وسائل الإدراك على المشاهدة والملاحظة والاستنتاج، قال تعالى: **﴿قُلْ سِيرُوا فِي الأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ثُمَّ اللَّهُ يُنشِئُ النَّشْأَةَ الآخِرَةَ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾** (العنكبوت: ٢٠)، قال تعالى: **﴿أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَافَّاتٍ ...﴾** (الملك: ١٩)، وقال تعالى: **﴿فَلْيَنظُرِ الإِنسَانُ إِلَى طَعَامِهِ﴾** (عبس: ٢٤)، وقال تعالى: **﴿أَفَلا يَنظُرُونَ إِلَى الإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ، وَإِلَى السَّمَاء كَيْفَ رُفِعَتْ ...﴾** (الغاشية: ١٧- ٢٠). وفي هذا كله تدريب على استخدام السمع والبصر والفؤاد والعقل لاستخراج مكنونات الكون وأسراره.

خامسًا: أن الحق فكرة مستقلة عن الزمان والمكان، أي أن الحقائق متوافقة مهما اختلفت مكانًا أو زمانًا بصورة مطردة لا يمكن تبديلها أو تحريفها **﴿فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا**

يَعْلَمُونَ﴾ (الروم: ٣٠).

إن التأمل في آيات القرآن الكريم توضح لكل متجرد للحق مستمسك به أن العلم والفقه هو الفاصل بين الحق والباطل **﴿كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللّهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاء وَأَمَّا مَا يَنفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الأَرْضِ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللّهُ الأَمْثَالَ﴾** (الرعد: ١٧).

بذلك يعين التدبر على إدراك قيمة الفقه والمبادرة إليه في إطار البرهان والدليل والمشاهدة والعيان وطرد الشك والظن والحدس والتخمين المناقض لليقين.

* * *

المبحث الثاني

التدبر وأثره في معرفة الأحكام الفقهية

المطلب الأول: التدبر وإيجاد البيئة الفقهية.

أصَّل القرآن قيمة العبادة وتوسيع دائرتها لتشمل كل عمل يقوم به المسلم، قال تعالى: **﴿قُلْ إِنَّ صَلاَتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ، لاَ شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَاْ أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ﴾** (الأنعام: ١٦٢- ١٦٣).

لذا كانت الحياة بكل ممارساتها عبادة الله تعالى، لذا قال الإمام علي كرم الله وجهه: (لا خير في عبادة لا علم فيها ولا علم لا فقه فيه ولا قراءة لا تدبر فيها)(١)، ولما كان القرآن الكريم محور الحضارة الإيمانية التي عاشها الصحب الكرام في حياة النبي ﷺ وبعد انتقاله للرفيق الأعلى فقد حرصوا على استلهام الخير منه والحياة في رجاء به، يقول ابن مسعود ﷺ: (لا تهذوا القرآن هذا الشِّعر ولا تنثروه نثر الدقل؛ قفوا عند

---

(١) انظر: الجامع لأحكام القرآن للقرطبي: ٣٤٤/١٤ .

عجائبه وحركوا به القلوب ولا يكن همّ أحدكم آخر السورة)(١)، إن الدعوة إلى إطالة النظر في الكتاب والوقوف عند عجائبه دلالة على عظم ما يفتحه القرآن لقارئيه من فواتح الخير، والخير الحقيقي الذي يفتحه القرآن لقارئه ومتدبره هو الفهم والفقه.

إن البيئة الفقهية التي يوفرها القرآن لمتدبره وقارئه وتاليه لهي الدليل على كرم القرآن المجيد، يقول ابن تيمية: (من أصغى إلى كلام الله وكلام رسوله ﷺ وتدبره بقلبه، وجد فيه من الفهم والحلاوة والهدى شفاء القلوب والبركة والمنفعة ما لا يجد في شيء من الكلام لا منظومه ولا منثوره)(٢).

إن المتدبر لآي الذكر الحكيم ويستقرئ معانيها يجد أن البيئة الفقهية المعنية على معرفة الأحكام والحلال والحرام كانت هدفًا ساميًا يسعى إليه الأنبياء والعلماء، ومن يتأمل قصة موسى عليه السلام مع العبد الصالح، وقصة داود وسليمان عليهما السلام مع صاحب الحرث، وقصة داود عليه السلام مع الأخوين ذوي الغنم، وقضاء النبي ﷺ في مسألة الدرع الذي وجد عند يهودي، وغير ذلك من آيات يجد اهتمام القرآن بوجود بيئة فقهية سليمة خالية من الأهواء والشهوات والميول لما في ذلك من تأثير شديد في الوصول إلى الحق الذي يريده الله لعباده كي تقوم الحياة على العدل والميزان.

ففي آيات سورة الكهف من قوله تعالى: ﴿**فَوَجَدَا عَبْداً مِّنْ عِبَادِنَا آتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِنْ عِندِنَا وَعَلَّمْنَاهُ مِن لَّدُنَّا عِلْماً، قَالَ لَهُ مُوسَى هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَى أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْداً، قَالَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْراً، وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَى مَا لَمْ تُحِطْ بِهِ خُبْراً، قَالَ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ صَابِراً وَلَا أَعْصِي لَكَ أَمْراً**﴾ (الكهف: ٦٥- ٦٩) إلى قوله تعالى: ﴿... **ذَلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِع عَّلَيْهِ صَبْراً**﴾ (الكهف: ٧٠- ٨٢)

---

(١) انظر: شعب الإيمان للبيهقي: ٣٤٤/١، وذكره البغوي الفراء في تفسيره: ٤٠٧/٤ .

(٢) انظر: اقتضاء الصراط المستقيم لابن تيمية: ٣٨٤، ط٢، مكتبة السنة المحمدية، القاهرة.

بيان لأهمية البيئة العلمية بكل أركانها ومقوماتها، أركانها؛ المعلم والمتعلم والمنهج والمناخ، والمقومات من الصبر في طلب العلم وتأدب مع المعلم وعدم استعجاله أو التقديم بين يديه، ولما كانت الأركان متوفرة كان الاختبار الحقيقي لموسى عليه السلام من جهة المقومات التي ينبغي توافرها في المتعلم والتي تعد عماد البيئة العلمية التي يحصِّل بها المرء الفهم الصحيح والعلم النافع وهي الصبر عند المتعلم والامتثال والتطامن بين يدي المعلم، قال تعالى: ﴿**قَالَ أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْراً**﴾، ثم قول: ﴿**قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِي صَبْراً، قَالَ إِن سَأَلْتُكَ عَن شَيْءٍ بَعْدَهَا فَلا تُصَاحِبْنِي قَدْ بَلَغْتَ مِن لَّدُنِّي عُذْراً**﴾ (الكهف: ٧٢- ٧٥- ٧٦)[١].

ولما حان الفراق إذا بالعبد الصالح يخبر نبي الله موسى عليه السلام بما علمه الله إياه من أمر السفينة والغلام والجدار وما كان فيها من أسرار علمه الله تعالى إياها، "وما فعلته عن أمري" لكن الدرس الذي يخرج به النبي الوجيه ونخرج به من بعده أن البيئة العلمية المعينة على الفقه والفهم لابد فيها من صبر وطول نفس واجتهاد في بلوغ الحق فبالصبر واليقين تنال الإمامة في الدين، قال تعالى: ﴿**وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ**﴾ (السجدة: ٢٤).

وعند تدبر قصة داود عليه السلام مع صاحب الحرث من سورة (الأنبياء) ومع ذوي الغنم من سورة (ص) تدرك قيمة توفر البيئة الفقهية الخالية من المؤثرات الخارجية التي ربما تغري عن الحق إلى غيره أو تحيد عنه، قال تعالى: ﴿**وَدَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِي الْحَرْثِ إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ الْقَوْمِ وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَاهِدِينَ، فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ وَكُلاً آتَيْنَا حُكْماً وَعِلْماً**﴾ (الأنبياء: ٧٨- ٧٩).

وفي سورة (ص) يقول الله تعالى: ﴿**وَهَلْ أَتَاكَ نَبَأُ الْخَصْمِ إِذْ تَسَوَّرُوا الْمِحْرَابَ،**

---

(١) انظر: تفسير القرطبي الجامع لأحكام القرآن السابق تفسير سورة الكهف، الآيات من ٦٥- ٨٢ .

إِذْ دَخَلُوا عَلَى دَاوُودَ فَفَزِعَ مِنْهُمْ قَالُوا لا تَخَفْ خَصْمَانِ بَغَى بَعْضُنَا عَلَى بَعْضٍ فَاحْكُم بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَلا تُشْطِطْ وَاهْدِنَا إِلَى سَوَاءِ الصِّرَاطِ، إِنَّ هَذَا أَخِي لَهُ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً وَلِيَ نَعْجَةٌ وَاحِدَةٌ فَقَالَ أَكْفِلْنِيهَا وَعَزَّنِي فِي الْخِطَابِ﴾ (ص: ٢١-٢٣)، ولما لم تكتمل البيئة الفقهية المعينة على الحكم السديد بالاستماع للخصم الثاني كانت العجلة في الحكم، **﴿قَالَ لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعْجَتِكَ إِلَى نِعَاجِهِ وَإِنَّ كَثِيراً مِّنْ الْخُلَطَاءِ لَيَبْغِي بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ إِلا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ وَظَنَّ دَاوُودُ أَنَّمَا فَتَنَّاهُ فَاسْتَغْفَرَ رَبَّهُ وَخَرَّ رَاكِعاً وَأَنَابَ، فَغَفَرْنَا لَهُ ذَلِكَ﴾** (ص: ٢٤- ٢٦)، إن البيئة الفقهية التي تشير إليها الآيات بيئة خالية من الأهواء أو الميول والاستعجال متى أردنا الحق لأن الهوى يصد ويضل عن الحق، كما أن الميل حيف وإتباع للعاطفة لا العقل أما الاستعجال في الحكم فناتج عن الشرع وعدم الإلمام بجوانب العلم وطرق الصواب وكان لنا الأسوة والمثل في أن تحصيل العلم مرهون بالتحقق والتفقه وتحري الصواب بكل سبيل.

ولتأكيد دور البيئة الفقهية المعينة على التفقه واستنباط الأحكام يروي الترمذي والحاكم وغيره عن قتادة بن النعمان: قال كان أهل بيت منا يقال لهم: أبيرق: بشر وبشير ومبشر وكان بشير رجلاً منافقًا يقول الشعر ويهجو به أصحاب الرسول ﷺ ثم ينحله بعض العرب يقول: قال فلان كذا، وكانوا أهل بيت حاجة وفاقة في الجاهلية والإسلام وكان الناس إنما طعامهم بالمدينة التمر والشعير فابتاع عمي رفاعة بني زيد حملاً من الدرمك فجعله في مشربة له فيها سلاح ودرع وسيف فعدى عليه من تحت فنقبت المشربة وأخذ الطعام والسلاح فلما أصبح أتاني عمي رفاعة فقال: يا ابن أخي أنه قد عُدي علينا في ليلتنا هذه فنقبت مشربتنا وذُهب بطعامنا وسلاحنا فتجسسنا في الدار وسألنا فقيل لنا: قدر رأينا بني أبيرق استوقدوا في هذه الليلة ولا نرى فيما نرى

إلا على بعض طعامكم، فقال بنو أبيرق ونحن نسأل في الدار والله ما نرى صاحبكم إلا لبيد بن سهل رجل منا له صلاح وإسلام، فلما سمع لبيد اخترط سيفه، وقال: أنا أسرق؟ والله ليخالطنكم هذا السيف أو لتبينن هذه السرقة، قالوا: إليك عنها أيها الرجل فما أنت بصاحبها، فسألنا في الدار حتى لم نشك أنهم أصحابها، فقال لي عمي: يا ابن أخي لو أتيت رسول الله ﷺ فذكرت ذلك له، فأتيته فقلت: أهل بيت أهل جفاء عمدوا إلى عمي فنقبوا مشربة له وأخذوا سلاحه وطعامه، فليردوا علينا سلاحنا وأما الطعام فلا حاجة لنا فيه، فقال رسول الله ﷺ سأنظر في ذلك فلما سمع بنو أبيرق أتوا رجلاً منهم يقال له أسير بن عروة فكلموه في ذلك فاجتمع في ذلك أناس من أهل الدار فقالوا: يا رسول الله إن قتادة بن النعمان وعمه عمدا إلى أهل بيت منا أهل إسلام وصلاح يرموهم بالسرقة من غير بينة ولا ثبت، قال قتادة: فأتيت رسول الله ﷺ فقال: عمدت إلى أهل بيت ذكر منهم إسلام وصلاح ترميهم بالسرقة على غير ثبت ولا بينة فرجعت فأخبرت عمي، فقال: الله المستعان فلم نلبث أن نزل: ﴿إِنَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللَّهُ وَلاَ تَكُن لِّلْخَآئِنِينَ خَصِيماً﴾ بني أبيرق ﴿وَاسْتَغْفِرِ اللَّهَ﴾ أي مما قلت لقتادة إلى قوله: ﴿عَظِيماً﴾ فلما نزل القرآن أتى رسول الله ﷺ بالسلاح فرده إلى رفاعة ولحق بشير بالمشركين فنزل على سلافة بنت سعد، فأنزل الله: ﴿وَمَن يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَى﴾ إلى قوله: ﴿ضَلاَلاً بَعِيداً﴾ (النساء: ١٠٥- ١١٦)(١).

والمتأمل للآيات يجد أن رسول الله ﷺ قبل أن ينزل عليه الوحي ببراءة لبيد بن سهل وتهمة بني أبيرق - منحازًا لأولئك الذين عمّوا الحقيقة والبثوا الباطل ثوب الحق

---

(١) انظر: أسباب النزول للسيوطي، سورة النساء الآية: ١٠٥: ١٦٧- ١٦٨، طبعة دار الرشيد، دمشق، سنة ١٤٠٥هـ، سنة ١٩٨٤م.

والسارق ثوب البراءة في مشهد يحير القاضي: جعل النبي ﷺ يجادل عنهم ويدافع عنهم وهو ما صرحت به الرواية السابقة للترمذي.

وحسبنا أن الشافعي يؤكد دور القرآن في إيجاد البيئة الفقهية السليمة للتناول، قال: (وليست تنزل بأحد من أهل دين الله نازلة إلا في كتاب الله الدليل على السبيل الهدى فيها(١))، قال تعالى: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَاناً لِّكُلِّ شَيْءٍ﴾ (النحل: ٨٩) إلى آخر ما قال الشافعي.

الخلاصة:

إن الفقه لا ينمو أو يزدهر إلا في ظل بيئة فكرية ونفسية متوازنة تعين على التبصر والتفقه وتيسر الطريق لحسن الفهم وتمنح العقل القدرة على الانطلاق والإبداع واتخاذ الأحكام والقرارات السديدة على نحو ما ظهر من النماذج السابقة وغيرها في القرآن الكريم.

إن في القرآن الكريم من السمات والخصائص ما يسهم في توفير البيئة الفقهية وإيجاد المكان الملائم للمتفقه، فالأمر بطاعة الله ورسوله وتكراره في القرآن ﴿أَطِيعُواْ اللّهَ وَأَطِيعُواْ الرَّسُولَ ...﴾ (النساء: ٥٩ منها) تنبيه للأنظار ألا تخرج عن الدليل الشرعي ووسائل بيانه فلا يعارض الفقيه نصًا برأي أو قياس أو اجتهاد أو استحسان(٢).

أما إذا كان الدليل ظني في دلالته فقد منح الفقيه الفرصة على توسيع دائرة العقل وعمله مع النص إذ لا اجتهاد مخالف للنص فيعالج مسائله وقضاياه بما يساعد على حلها ويفئ على عقله النماء والخصوبة الفكرية والقدرة على استدعاء جميع الاحتمالات والمترقبات.

---

(١) الرسالة للإمام الشافعي: ٢٠ ط٢، مكتبة التراث، ١٩٧٩م، القاهرة، تحقيق: الشيخ/ أحمد شاكر.

(٢) أثر تعلم القرآن في تنمية الملكة الفقهية، د/ الوليد آل فريان: ١٥ السابق.

هذا إلى جانب ما يمد القرآن الكريم به عقل الفقيه من تريض وشحذ وتقويم للعقل والفكر معًا فيتربى الفقيه على التدرج والموازنة والربط بين الجزئيات والكليات من خلال قواعد الانعطاف والانكشاف التي يكونها القرآن في نفسية الفقيه وفكره.

وبالإضافة إلى إيجاد البيئة الفقهية الصافية فإن القرآن الكريم يفيض على الفقيه بالسكينة والطمأنينة وانشراح الصدر وصفاء الوجدان، قال تعالى: ﴿قَدْ جَاءتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَاء لِّمَا فِي الصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ (يونس: ٥٧)، وفي حديث البراء بن عازب أن رسول الله ﷺ قال: "أقرأ فلان فإنها السكينة تنزلت عند القرآن أو تنزلت للقرآن"(١).

المطلب الثاني: التدبر ووسائل بيان الأحكام الفقهية

أنزل الله تعالى القرآن الكريم مُبينًا ومُبَيِّنًا وجعل تناوله قراءة وتدبرًا وفهمًا يسيرًا وميسرًا ومكان بيانه للأحكام متعددًا ومتنوعًا بالعبارة والإشارة والعام والخاص والوضوح والخفاء والأمر والنهي والمعلوم والمفهوم والإعلان والإعلام والإفتاء والاستقراء حتى أن الأصوليين أفردوا للبيان ووسائله أبوابًا كبيرة في كتبهم وكان القرآن الكريم وسيلة الفتح والاهتداء إلى تلك الوسائل في البيان ويكفيك أن تقرأ ما كتب الشافعي في الرسالة(٢) ثم الأصوليون من بعده لتدرك أن التدبر في القرآن كان الوسيلة الأولى في بيان الأحكام وإلى وقفة يسيرة مع بعض ما قالوا: يقول الشافعي (رحمه الله): تحت عنوان (بيان ما نزل من الكتاب عامًا يراد به العام ويدخله الخاص)،

---

(١) الحديث أخرجه مسلم، فضائل القرآن، باب نزول السكينة لقراءة القرآن: ٥٤٨/١ رقم: ٩٧٥، وفي الباب مثله عن أبي سعيد الخدري بتسمية فلان وتعيينه وهو (أسيد بن حضير) رواية مسلم: ٥٤٩/١ — ٥٥٠ رقم ٧٩٦.

(٢) انظر الرسالة للإمام الشافعي، السابق: ٥٣- ٧٢، درجات البيان في القرآن، البيان الأول: وهو الذي لا يحتاج إلى بيان: ٧٣- ٨٣، البيان الثاني: وهو ما في بعضه إجمال بينته السنة: ٨٤- ٩١، وهكذا حتى البيان من وجوه لا يختلف إلا عند من يقصر عمله: ٤٢٠ .

قال تعالى: ﴿اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ﴾ (الزمر: ٦٢)، وقال تبارك وتعالى: ﴿خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ﴾ (إبراهيم: ٣٢)، وقال: ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي الأَرْضِ إِلاَّ عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا﴾ (هود: ٦) فهنا عام لا خاص فيه، قال الشافعي: فكل شيء من سماء وأرض وذي روح وشجر وغير ذلك فالله خلقه وكل دابة فعلى الله رزقها ويعلم مستقرها ومستودعها.

وفي قوله تعالى: ﴿مَا كَانَ لأَهْلِ الْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُم مِّنَ الأَعْرَابِ أَن يَتَخَلَّفُواْ عَن رَّسُولِ اللَّهِ وَلاَ يَرْغَبُواْ بِأَنفُسِهِمْ عَن نَّفْسِهِ﴾ (التوبة: ١٢٠)، يقول الشافعي: وهذا في معنى الآية قبلها – أي معنى العموم – وإنما أريد به من أطاق الجهاد من الرجال، وليس لأحد منهم أن يرغب بنفسه عن نفس النبي ﷺ: أطاق الجهاد أو لم يطقه – ففي هذه – الآية الخصوص والعموم ... إلخ، ما قال في وسائل البيان(١).

إن الشافعي – عليه من الله تعالى سحائب الرحمن – أدرك تلك الوسائل في بيان الأحكام بالتدبير والتفهم وطول التأمل والتفكر فأول العلم كما قال ابن عبد البر (ت ٤٦٣هـ): (أول العلم حفظ الكتاب الله ﷻ وتفهمه ولا أقول حفظه كله فرض، ولكن أقول إن ذلك واجب لازم على من أحب أن يكون عالمًا(٢). وإن تعذر ذلك فإنه لا أقل من أن يحفظ آيات الأحكام(٣).

إن تدبر القرآن وكثرة مطالعته وسيلة لا غنى للفقيه عنها، حيث إنه لن تنال حقائقه أو تنجلي فوائده إلا أن يتلى حق تلاوته ويتدبر حق تدبره، قال تعالى: ﴿كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ

---

(١) تأمل كيف بدأ الشافعي حديثه عن البيان في القرآن بسؤاله: كيف البيان؟ الرسالة، ص: ٢١ .

(٢) جامع بيان العلم لابن عبد البر: ٢/٢٠٤، ط١، المكتبة السلفية، المدينة المنورة، ١٣٨٨هـ.

(٣) انظر في تحديد آيات الأحكام واختلاف العلماء فيها من بين قائل بأنها مائتا آية وقائل بأنها خمسمائة آية، شرح الكوكب المنير للفتوحي ٤٠/٤٦٠، نشر جامعة أم القرى، سنة ١٤٠٨هـ، ونيل المرام في تفسير آيات الأحكام لصديق خان: ١٣، نشر مكتبة المدني، ١٣٩٩هـ.

إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِّيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُوا الأَلْبَابِ﴾ (ص: ٢٩)، وذلك بسؤال القرآن وتنويره، قال ابن مسعود ﷺ: "من أراد علم الأولين والآخرين فليثور القرآن"، وعلى قدر الجهد سيكون العلم، فإن الذي علم بالقلم – وهو الله ﷻ - قادر على أن يمن بفضله ومنه وكرمه كما مَنَّ على المتلقي الأول – رسول الله ﷺ بمزيد من الفهم والفقه وفتح وسائل القراءة والهداية لأن ذلك شأن إلهي، قال تعالى: **﴿فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ، ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ﴾** (القيامة: ١٨- ١٩)(١).

إن من بين وسائل البيان كما قال العلماء: "ألنص" فما معناه وما تطبيقاته؟ النص لغة: مصدر من نَصَّ يَنُصُّ نَصًّا(٢) يعني الرفع بنوعيه الحسي والمعنوي، والبحث والتعيين واصطلاحًا(٣): ما يزاد وضوحًا بقرينة تقترن باللفظ من المتكلم ليس في اللفظ ما يوجب ذلك ظاهرًا بدون تلك القرينة(٤). وقيل: ما ازداد وضوحًا على الظاهر بمعنى من المتكلم لا في نفس الصيغة(٥). وقيل كل لفظ دلَّ على الحكم بصريحة على وجه لا احتمال فيه(٦)، وقيل: ما لا يحتمل التأويل(٧).

ومن تطبيقاته:

- إن الكافر إذا لاذ بالبيت الحرام فلا يقتل إلا أن يبتدئ بالقتال فيه عملاً بقوله

---

(١) انظر **﴿أَفَلاَ يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ﴾**، د/ طه جابر العلواني: ١٥١- ١٥٤، ط١، دار السلام، القاهرة، سنة ٢٠١٠م.

(٢) انظر: مختار الصحاح للرازي مادة: نص طبعة المركز العربي للثقافة والعلوم، سنة ١٩٩٥م،

(٣) انظر: المعجم الجامع للتعريفات الأصولية ومراجعة: د/ زياد حميدان: ١٢١- ١٢٢، ط١، مؤسسة الرسالة، ناشرون، سنة ٢٠٠٦م.

(٤) أصول السرخسي: ١٦٤/١ــ ط١، دار المعرفة، بيروت (ب ت) تحقيق: أبو الوفا الأفغاني.

(٥) كشف الأسرار للبزدوي: ٤٦/١، ط١، دار الكتاب العربي، بيروت، سنة ١٩٧٤م.

(٦) المعجم الجامع السابق: ١٢١ .

(٧) المعجم الجامع السابق نفسه.

تعالى: ﴿فَإِن قَاتَلُوكُمْ فَاقْتُلُوهُمْ﴾ (البقرة: ١٩١)، وهذا بخلاف الباغي المسلم فإنه إذا قاتل يقاتل بنية الدفع، ولا يتبع مدبر، ولا يجهز على جريح"(١).

- إبطال بيع المكره لفوت الرضا المنصوص عليه في قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ تَأْكُلُواْ أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ إِلاَّ أَن تَكُونَ تِجَارَةً عَن تَرَاضٍ مِّنكُمْ وَلاَ تَقْتُلُواْ أَنفُسَكُمْ إِنَّ اللّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيماً﴾ (النساء: ٢٩)، وإبطال أفعاله كلها حملاً عليه(٢).

والخلاصة: أن التدبر في القرآن الكريم، كما كان السبيل إلى أنواع البيان كان السبيل إلى بيان تلك الأحكام وصدق الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَنزَلْنَا إِلَيْكُمْ آيَاتٍ مُّبَيِّنَاتٍ وَمَثَلاً مِّنَ الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلِكُمْ وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ﴾ (النور: ٣٤).

* * *

المبحث الثالث

التدبر وأثره في معرفة المقاصد والقواعد والمناهج

المطلب الأول: التدبر وأثره في معرفة المقاصد الشرعية.

يأتي الاستقراء لأحكام الشريعة الغراء – وفي مقدمتها آيات الكتاب – في أول طرق إثبات المقاصد الشرعية والاستقراء عمل العقول والفكر وثمرة التفكر والتدبر، قال الإمام الجويني: (ومن لم يتفطن لوقوع المقاصد في الأوامر والنواهي فليس على بصيرة في وضع الشرعية)(٣).

---

(١) انظر: أحكام القرآن لابن العربي (٥٤٣هـ): ١٠٨/١، ط دار المعرفة، بيروت، تحقيق: محمد علي البجاوي.

(٢) انظر: السابق نفسه: ٤١١/١ .

(٣) البرهان في أصول الفقه للإمام الجويني: ٢٠٥/١، ط٢، دار صادر بيروت، سنة ١٤٠٠هـ، تحقيق: د/ عبد العظيم الديب.

ثم يؤكد تلمذه الإمام الغزالي بقوله: (ومقاصد الشرع تعرف بالكتاب والسنة والإجماع)[١]، في إشارة واضحة إلى اعتماد النصوص في إثبات المقاصد الشرعية.

وإذا كانت المقاصد الشرعية غايتها المصالح الدنيوية والأخروية فإنها لا تثبت إلا بالنص من الكتاب والسنة، يقول الإمام عز الدين بن عبد السلام: "والكتاب والسنة يشملان على الأمر بالمصالح كلها دقها وجلها، وعلى النهي عن المفاسد كلها دقها وجلها فمنه ما يدل بصيغة الأمر والنهي، ومنها ما يدل بالوعد الوعيد"[٢] وإذا كانت المقاصد الدنيوية يمكن التعرف عليها بالفطرة والتجربة إلى جانب النص أو النقل، فإن المقاصد الدينية الأخروية لا تثبت إلا بالنص من الكتاب أو السنة، يقول العز: (أما مصالح الآخرة ومفاسدها فلا تعرف إلا بالنقل)[٣].

وفي الجزء الخاص بالمقاصد الشرعية عند الإمام الشاطبي في الموافقات بيّن أن طرق إثبات المقاصد متعددة ومتنوعة أجملها في أربعة مسالك مدارها النص الصريح الموضح للعلل الشرعية والقائم على الاستقراء، يقول: (والمعتمد إنما هو أننا استقرينا من الشريعة أنها وضعت لمصالح العباد[٤]، والمتأمل في طرق إثبات المقاصد عند الشاطبي يجده اعتمد استقراء الشرعية والنظر في أدلتها الكلية والجزئية وما انطوت عليه من دوائر للضرورات الخمس الدين والنفس والنسل والعقل والمال)[٥].

---

(١) المستصفي لأبي حامد الغزالي: ٣١٠/١، ط١، دار الكتب العلمية، بيروت، سنة ١٤٠٠هـ، تحقيق: محمد عبد السلام عبد الشافي.

(٢) قواعد الأحكام في مصالح الأنام للعز بن عبد السلام: ١٣٢/١، طبعة دار القلم، دمشق، ٢٠٠٠م.

(٣) قواعد الأحكام السابق: ٦/١ .

(٤) الموافقات في أصول الشريعة للإمام الشاطبي: ٢٣/١، طبعة دار المعرفة، بيروت (ب ت)، تحقيق: الشيخ/ عبد الله دراز.

(٥) انظر: نظرية المقاصد عند الشاطبي للدكتور/ أحمد الريسوني: ٢٨٣، طبعة المعهد العالمي للفكر الإسلامي، سلسلة الرسائل الجامعية، سنة ١٩٩٢م.

وإنما كان تقسيم الشاطبي للمقاصد أصلية: "لاحظ فيها للمكلف "بنوعيها الضروري والكفائي أم مقاصد تابعة (التي روعي فيها حظ المكلف، ويحصل له نيل بعض الشهوات والاستمتاع بالمباحات والتي هي خادمة للمقاصد الأصلية ومكملة لها، وهي منه من الله وفضل)، فإن مدارها النص الصريح من القرآن المجيد أو السنة الصحيحة(١).

وإذا أردنا التطبيق من القرآن الكريم فإن أدلته واضحة الدلالة بحيث يضعف احتمال أن يكون المراد منها غير ما هو ظاهرها بحسب الاستعمال العربي على حد قول الإمام ابن عاشور، في إشارة منه إلى دلالة النص(٢) والظاهر(٣) حيث يدلان على إفادة المعنى دلالة مستقلة بحسب الوضع العربي فيستخلص مقصد الشارع منهما، ومن ذلك في الكتاب: ﴿وَاللّهُ لاَ يُحِبُّ الفَسَادَ﴾ (البقرة: ٢٠٥)، وقوله تعالى: ﴿يُرِيدُ اللّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلاَ يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ﴾ (البقرة: ١٨٥)، وقوله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾ (الحج: ٧٨)، فواضح من ظواهر الآيات البينات مقاصد الشارع فيها من الإصلاح والتيسر ورفع الحرج(٤).

أيضًا في قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ تَأْكُلُواْ أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ﴾ (النساء: ٢٩)، بيان لمقصد الشارع في حفظ الأموال والحقوق، وقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا

---

(١) انظر: الفقه المقاصدي عند الإمام الشاطبي وأثره على مباحث أصول التشريع الإسلامي، د/ أحسن لحساسنه: ٩٧، ٢٤- ١٠٧، ط، دار السلام، القاهرة، سنة ٢٠٠٨م.

(٢) النص: تقدم تعريفه في المبحث السابق.

(٣) الظاهر: ما ظهر المراد منه بنفس الصيغة، وقيل: ما ظهر المراد منه بصيغته، وقيل مالا يفتقر في إفادته معناه إلى غيره أفاده وحده أو مع غيره. انظر: المعجم الجامع للتعريفات الأصولية، السابق ومراجعة: ٦٥- ٦٧ .

(٤) مقاصد الشريعة، الطاهر ابن عاشور: ١٢٧ (بتصرف)، تحقيق: محمد الطاهر الميساوي، ط١، البصائر، سنة ١٩٩٨م، ماليزيا.

يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَن يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاء فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَن ذِكْرِ اللّهِ وَعَنِ الصَّلاَةِ فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ﴾ (المائدة: ٩١)، ضرورة حفظ العقل بالامتناع عن الخمر وغيره من المسكرات قل أو كثر، قال ﷺ: "كل مسكر حرام وما أسكر كثيره فقليله حرام"⁽¹⁾، ولعن ﷺ الخمر وكل من يكون وسيلة في استخدامها فقال ﷺ: "لعن الله الخمر وشاربها وساقيها وبائعها ومبتاعها وعاصرها ومعتصرها وحاملها والمحمولة إليه"⁽²⁾.

وفي حفظ النسل يقول الله تعالى: ﴿وَلاَ تَقْتُلُواْ أَوْلاَدَكُم مِّنْ إمْلاَقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ﴾ (الأنعام: ١٥١)، ويقول تعالى: ﴿وَلاَ تَقْتُلُواْ أَوْلادَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلاقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُم إنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْءاً كَبِيراً﴾ (الإسراء: ٣١).

وفي حفظ العرض ككلية سادسة عند من ميز بين النسل والعرض، يقول تعالى: ﴿وَلاَ تَقْرَبُواْ الزِّنَى إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاء سَبِيلاً﴾ (الإسراء: ٣٢)، وقال تعالى: ﴿الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا مِئَةَ جَلْدَةٍ وَلا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ﴾ (النور: ٢)، وفي هذا يقول ﷺ عن أكبر الذنوب عندما سئل ﷺ، أي الذنوب أكبر؟ فقال: "أن تدعوا لله ندًا وهو خلقك، قيل، ثم أي؟ قال: "أن تقتل ولدك مخافة أن يطعم معك، ثم أي؟ قال: أن تزاني حليلة جارك"⁽³⁾.

والخلاصة: أن الذي يتدبر القرآن ويستقرئ آياته يجد بيانًا ناصعًا في بيان المقاصد الشرعية بكلياتها وجزئياتها بعمومها وخصوصيتها، فحفظ الضروريات وهي الدين

---

(١) أخرجه النسائي: كتاب الأشربة، باب تحريم كل شراب أسكر كثيره: ٣٠٠/٨، وأبو داود، كتاب الأشربة، باب النهي عن السكر: ٨٧/٤، حديث رقم ٣٦٨١، وكلا الإسنادين صحيح.

(٢) أخرجه أبو داود، كتاب الأشربة، باب العنب يعصر للخمر: ٨٢/٤، رقم ٣٦٧٤، وإسناده صحيح.

(٣) أخرجه البخاري: كتاب الأدب، باب قتل الولد خشية أن يأكل معه: ٧٥/٧، ومسلم: كتاب الإيمان، باب كون الشرك أقبح الذنوب وبيان أعظمها به: ٩٠/١ .

والنفس والعقل والمال والعرض والنسب، وهو ما يطلق عليه الكليات الست ثابت بالكتاب، بله الكماليات والتحسينيات ومكارم الأخلاق على نحو يسره الله تعالى لكل متدبر متأمل في كتاب الله تعالى.

هذا وربما يزداد الأمر وضوحًا عند بيان أثر التدبر في استخراج القواعد والمناهج في الصفحات القادمة.

المطلب الثاني: التدبر وأثره في معرفة القواعد الفقهية[1].

القواعد تعابير فقهية مركزة تعبر عن مبادئ قانونية ومفاهيم مقررة في الفقه الإسلامي تبنتها المذاهب الفقهية في تفريع الأحكام وتنزيل الحوادث عليها، وتخريج الحلول الشرعية للوقائع وقد صيغت هذه القواعد على أيدي أناس معلومين من كبار فقهاء المذاهب وأهل التخريج والترجيح، استنباطًا من دلالات النصوص الشرعية وعلل الأحكام بالإضافة إلى قواعد أصول الفقه والمقررات العقلية، ومصدر القواعد الفقهية قد يكون نصًا من القرآن الكريم أو حديثًا نبويًا شريفًا أو مستنبطًا من نص شرعي (قرآن أو سنة) وقد يكون مصدرها مجموعة من المسائل الفقهية التي تجمعها علاقة واحدة، وقوة القاعدة من قوة مصدرها فإن كان مصدرها النص الثابت من قرآن أو سنة فالاحتجاج بها مأخوذ من الاحتجاج بأصلها[2].

والمتأمل لنشأة القواعد يجدها قد أسست منذ العصر النبوي حيث نزول القرآن

---

(١) القاعدة: لغة: الأساس، ومنه قوله تعالى: ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ﴾ (البقرة: ١٢٧)، وقال تعالى: ﴿فَأَتَى اللَّهُ بُنْيَانَهُم مِّنَ الْقَوَاعِدِ﴾ (النحل: ٢٦).

انظر: مختار الصحاح السابق، مادة قعد، واصطلاحًا: الأمر الكلي الذي ينطبق عليه جزئيات كثيرة تفهم أحكامه منه وقيل: قضية كلية منطقية على جميع جزئياتها. انظر الأشباه والنظائر، تاج الدين السبكي، (٧٧١هـ) ١١/١، دار عالم الكتب، بيروت، ١٤١١هـ، وانظر: التعريفات للجرجاني: ١٧١، طبعة مصطفى الحلبي، ١٣٥٧هـ.

(٢) الدرر البهية في التعريف بالقواعد الفقهية أ.د/ محمد الحفناوي: ٥- ٨ طبعة مكتبة قرية طنطا (ب ت).

الكريم والحكمة النبوية التي جمعت الكلم في أوجز عبارة فقد أوتي ﷺ جوامع الكلم.

ومن ذلك قاعدة: المشقة تجلب التيسر مأخوذة من قوله تعالى: ﴿يُرِيدُ اللّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلاَ يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ﴾ (البقرة: ١٨٥)، وقوله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾ (الحج: ٧٨)، وقاعدة: الضرورات تبيح المحظورات(١) من قوله تعالى: ﴿... فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلاَ عَادٍ فَلا إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ اللّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ (البقرة: ١٧٣)، وقوله تعالى: ﴿فَمَنِ اضْطُرَّ فِي مَخْمَصَةٍ غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لِإِثْمٍ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ (المائدة: ٣).

وقاعدة: ما ثبت على خلاف القياس فغيره لا يقاس عليه(٢)، والقياس مأخوذ من قوله تعالى: ﴿فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِي الْأَبْصَارِ﴾ (الحشر: ٢).

وقاعدة: ما حرم أخذه حرم عطاؤه، مأخوذ من قوله تعالى: ﴿وَتَعَاوَنُواْ عَلَى الْبرِّ وَالتَّقْوَى وَلاَ تَعَاوَنُواْ عَلَى الإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ﴾ (المائدة: ٢)، فمن المقرر شرعًا أنه كما لا يجوز فعل الحرام لا يجوز الإعانة عليه والتشجيع على فعله، فكما يحرم أخذ الربا يحرم عطاؤه، لقوله تعالى: ﴿وَأَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا﴾ (البقرة: ٢٧٥).

وقاعدة: اليقين لا يزول بالشك مأخوذة من قوله تعالى: ﴿وَمَا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ إِلاَّ ظَنّاً إَنَّ الظَّنَّ لاَ يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئاً﴾ (يونس: ٣٦)، وهي من القواعد الكلية أو القواعد الكبرى عند الشافعية(٣).

---

(١) انظر: شرح القواعد الفقهية للشيخ أحمد الزرقا: ١٨٥، ط٦، دار القلم، دمشق، ٢٠٠١م، وكذا قاعدة: الضرر يزال من الآيات أيضًا، وقاعدة: إذا ضاق الأمر اتسع.

(٢) السابق نفسه: ١٥١ .

(٣) نظم بعض الشافعية القواعد الكبرى الخمس في قوله:

خمس مقررة قواعد مذهب   للشافعي بها تكون خبيرا
ضرر يزال وعادة قد حكمت   وكذا المشقة تجلب التيسرا
والشك لا ترفع به متيقنًا   والقصد أخلص إن أردت أجورا

انظر: القواعد للإمام الشيخ أحمد الزرقا السابق: ٣٨، وانظر في هذه القاعدة الأشباه والنظائر للسبكي السابق: ١٣/١ .

وقاعدة: الأمور بمقاصدها(١) مأخوذة من قوله: **﴿وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ الآخِرَةِ نُؤْتِهِ مِنْهَا﴾** (آل عمران: ١٤٥).

وقاعدة: العادة محكمة(٢) مأخوذة من قوله تعالى: **﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِيَسْتَأْذِنكُمُ الَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ وَالَّذِينَ لَمْ يَبْلُغُوا الْحُلُمَ مِنكُمْ ثَلاثَ مَرَّاتٍ﴾** (النور: ٥٨).

وقاعدة: التعين بالعرف كالتعين بالنص(٣) مأخوذة من قوله تعالى: **﴿خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ﴾** (الأعراف: ١٩٩)، وغيرها من القواعد التي تحكم العرف وتبني عليه أو على العادة المحكمة.

وقاعدة: الثابت بالبرهان كالثابت بالعيان(٤) يمكن اعتمادها على قوله تعالى: **﴿قُلْ هَاتُواْ بُرْهَانَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾** (البقرة: ١١١).

وقاعدة: الخيانة لا تتجزأ من قوله تعالى: **﴿إِنَّ اللّهَ لاَ يُحِبُّ الخَائِنِينَ﴾** (الأنفال: ٥٨)، قوله تعالى: **﴿وَأَنَّ اللّهَ لاَ يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِنِينَ﴾** (يوسف: ٥٢).

وقاعدة: الأصل في العقد الرضا من قوله تعالى: **﴿إِلاَّ أَن تَكُونَ تِجَارَةً عَن تَرَاضٍ مِّنكُمْ﴾** (النساء: ٢٩ منها).

إن هذه القواعد وغيرها من القواعد المثبوتة في القرآن الكريم تزكي موهبة الفقيه وتلبي حاجته وتمكنه من استنباط الأحكام في إطار الدليل الشرعي حتى أنك تستطيع أن تقول إن القواعد الفقهية التي لم تؤخذ من نص مباشر من الكتاب والسنة ترجع

---

(١) انظر المجموع المذهب للعلائي: ٣٧/١، نشر دار عمار، ١٤٢٥هـ، وتقرير القواعد لابن رجب: ٣٩، ٣٨، ١٨، ط دار المعرفة، بيروت (ب ت).

(٢) انظر: المجموع المذهب للعلائي السابق نفسه: ١٣٧/١، والقواعد النوازية لابن تيمية: ١٣٦، ط مكتبة المعارف، سنة ١٤٠٤هـ.

(٣) انظر شرح القواعد الفقهية للشيخ أحمد الزرقا، السابق، ص٢٤١ .

(٤) انظر السابق نفسه: ٣٦٧ .

بالاستقراء إلى دلالات النصوص وعللها ومعلوم أن النقل الصحيح لا يتعارض مع العقل الصريح(١).

وها هو الحبر وترجمان القرآن يقول: كل شيء في القرآن: - أو أو — فهو مخيّر وكل شيء — فإن لم تجدوا — فهو الأول فالأول. وهذا الكلام يمثل قاعدة في باب الكفارات والتخير فيها(٢).

والخلاصة: أن الكثير من القواعد الفقهية يعود إلى نصوص الشريعة الغراء من الكتاب وأقوال سيد المرسلين ﷺ، وقد استخرجها العلماء بعد طول تأمل ونظر وهو ما يمكن اعتماده بالتدبر والتفكر وحتى القواعد المنطقية العقلية والعرفية فهي تعود إلى عموم الشريعة ومقرراتها إذ لا يتعارض نص صحيح مع عقل صريح.

المطلب الثالث: التدبر وأثره في معرفة مناهج الاستنباط

تعددت مناهج الاستنباط التي ذكرها الأصوليون في كتبهم بداية من الإجماع وانتهاء بالاستصحاب وكما كانت النصوص القرآنية دالة على وجوب طاعة الله تعالى فيما حكم وأمر وطاعة رسوله فيما بلغ ونقل وطبق ونفذ في واقع الناس دلت نصوص القرآن والسنة على المناهج التي يعتمد عليها في الاجتهاد واستنباط الأحكام واكتسبت هذه المناهج حجيتها من مصدرها التي استخرجت منه (القرآن والسنة) بعد استقراء واستنباط وتدبر، فالإجماع الأصولي والذي يعني اتفاق المجتهدين من أمة محمد ﷺ في

---

(١) أثر تعليم القرآن في تنمية الملكة الفقهية: ٢٠ السابق.

(٢) انظر: الدرر البهية السابق نفسه: ١٣، والأثر أخرجه عبد الرازق في مصنفه: باب الكفارات بأي الكفارات شاء كفر.

عصر من العصور على حكم شرعي(١)، وما تبنى عليه عملية الاتفاق من تشاور في متعلقات الحكم وملابساته – حجته تعتمد على النص القرآني والنبوي حتى قيل إن الإمام الشافعي ظل يقرأ القرآن مرات ومرات حتى هداه الله تعالى لآية في سورة النساء: ﴿وَمَن يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَى وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّى وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيراً﴾ (النساء: ١١٥)(٢)، وقوله ﷺ: "إن الله لا يجمع أمتي – أو قال أمة محمد – على ضلاله ويد الله مع الجماعة ومن شذ في النار"(٣).

ومع أن الآية الكريمة ليست نصًا في الإجماع الأصولي إلا أن مفهوم الإجماع الذي مارسه النبي ﷺ مع أصحابه في حياته (غزواته ومشاوراته) يعتمد على منهجية قرآنية مستمدة من كتاب الله وعرضه لمفهوم الإجماع في الكثير من الآيات البينات، ومنها قوله تعالى: ﴿فَأَجْمِعُواْ أَمْرَكُمْ وَشُرَكَاءكُمْ ثُمَّ لاَ يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً﴾ (يونس: ٧١)، ﴿فَلَمَّا ذَهَبُوا بِهِۦ وَأَجْمَعُوٓا أَن يَجْعَلُوهُ فِى غَيَٰبَتِ ٱلْجُبِّ﴾ (يوسف: ١٥)، وقوله تعالى: ﴿وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُواْ أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ﴾ (يوسف: ١٠٢)، وقوله تعالى: ﴿فَأَجْمِعُوا كَيْدَكُمْ ثُمَّ ائْتُوا صَفّاً﴾ (طه: ٦٤)، وقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ

---

(١) انظر: معجم لغة الفقهاء: ٢٢، والمعجم الجامع للتعريفات الأصولية السابق: ١- ١٢، وفيه نحوًا من أربعين تعريفًا للإجماع كلها تدور حول معنى الاتفاق على حكم أو أمر من الأمور الشرعية بعد عصر النبوة على خلاف في صفة المجمعين أهم المجتهدون أم الفقهاء أم أهل الرأي أم أهل الحل والعقد أم علماء العصر أم الأمة جملة.

(٢) انظر: المغنى في أصول الفقه لجلال الدين الخبازي (ت ٦٩١هـ): ٢٧٣، ط١، جامعة أم القرى، مكتبة المكرمة، تحقيق: د/ محمد مظهر بقا، وأصول الفقه للشيخ محمد الخضري: ٢٨١، ط دار الحديث، القاهرة، سنة ٢٠٠٣م، والشافعي للإمام أبي زهرة: ٢٣٣، ط دار الفكر، القاهرة، ١٩٩٦م، وأصول الفقه الإسلامي، د/ وهبة الزحيلي: ٤٩٥/١، ط٣، دار الفكر، دمشق.

(٣) أخرجه الحاكم في المستدرك على الصحيحين: كتاب العلم: ١١٦/١، والترمذي: كتاب الفتن، باب الز .... الجماعة وإسناده صحيح.

الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَإِذَا كَانُوا مَعَهُ عَلَى أَمْرٍ جَامِعٍ لَمْ يَذْهَبُوا حَتَّى يَسْتَأْذِنُوهُ﴾ (النور: ٦٢)، فهذه الآيات الكريمة تقرر وجود فكرة الإجماع بمعناها اللغوي والاصطلاحي وتؤكد أن الجماعة المسلمة بقيادته ﷺ قد اتخذت الإجماع أسلوبًا عمليًا في التعامل مع النوازل العامة والمستجدات التي تمر بالأمة وقتئذ ولا أدل على ذلك من مشاورات النبي ﷺ لأصحابه يوم بدر وعند الخروج للمشركين في أحد ويوم حفر الخندق وغيرها.

إن منهجية الإجماع التي تحدث عنها الأصوليون كانت نتيجة لاستقراء الآيات الكريمة التي تحدثت عن الإجماع والتي ترجمها النبي ﷺ في حياته واقعًا عمليًا(١).

والقياس نظر إليه بعض الأصوليين على أنه حجة إلهية موضوعة من قبل الشارع الحكيم لمعرفة أحكامه، لذا عرفوا القياس بأنه: الاستواء بين الفرع والأصل في العلة المستنبطة من حكم الأصل(٢).

قيل: القياس مساواة المسكون للمنصوص علة الحكم(٣)، قيل: إثبات مثل حكم النص فيما لا نص فيه(٤).

---

(١) انظر التجديد في علم أصول الفقه في العصر الحديث، د/ محمد فتحي العتربي: ٣٣٤- ٣٣٧، رسالة دكتوراه بدار العلوم، القاهرة، سنة ٢٠١٠م.

(٢) الإحكام في أصول الأحكام للآمدي: ١٧٤/٣، ط١، دار الحديث، القاهرة، ودار الكتب العلمية، بيروت، سنة ١٤٠٠هـ، سنة ١٩٨٠م.

(٣) مسلم الثبوت في أصول الفقه لابن عبد الشكور، (ت ١١١٩هـ) ٢٤٦/٢، ط دار الفكر، بيروت (ب ت).

(٤) كشف الأسرار، عبد العزيز البخاري (ت ٧٣٠هـ): ٢٧٠/٣، ط دار الكتاب العربي، بيروت (ب ت)، ومن الأصوليون من نظر إلى القياس على أنه عمل المجتهد ونظر المستنبط، ومنهم البيضاوي (ت ٦٨٥هـ) في المناهج وصدر الشريعة في التوضيح وابن جزي في التقريب، وتاج الدين السبكي وتقي الدين السبكي، انظر: التجديد في علم أصول الفقه السني في العصر الحديث بين النظرية والتطبيق، د/ محمد العتربي، السابق: ٣٥١- ٣٥٢.

وأيًا كانت النظرة الأصولية للقياس باعتباره حجة إلهية أم عمل المجتهد فهو مستمد من دلالات النص الشرعي (القرآن والسنة).

فالقرآن الكريم في قوله تعالى: **﴿فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِي الأَبْصَارِ﴾** (الحشر: ٢)، يشير إلى أهمية الاعتبار والنظر في إلحاق الشبيه بشبيه والنظير بنظيره بالمماثلة أو باعتبار الأولى.

دليل ذلك في القرآن الكريم قوله تعالى: **﴿فَلاَ تَقُل لَّهُمَا أُفٍّ وَلاَ تَنْهَرْهُمَا﴾** (الإسراء: ٢٣)، فإنه إذا كان قول: "أف" منهيًا عنه فأولى بالنهي الضرب.

وقوله تعالى: **﴿فَإِنْ أَتَيْنَ بِفَاحِشَةٍ فَعَلَيْهِنَّ نِصْفُ مَا عَلَى الْمُحْصَنَاتِ مِنَ الْعَذَابِ﴾** (النساء: ٢٤) فأن العبد يقاس على الأمة في هذا التصنيف إن ارتكب ما يوجب الحد بالجلد(١).

ولما كان القرآن الكريم محور التوجيه الأصولي في تأصيل المناهج فإن الشافعي – رحمه الله – يعتبر القياس حملاً على النص بله أتباعًا للنص(٢).

ومنهجية الاستصلاح أو العمل بالمصالح مدارها على الشريعة وأحكامها ومقاصدها وحكمها إذ (الشرعية – كما يقول ابن القيم – مبناها وأساسها على الحكم ومصالح العباد في المعاش والمعاد)(٣).

(والقرآن والسنة زاخران بتعليل الأحكام بالحكم والمصالح ... ولو كان هذا في القرآن والسنة نحو مائة موضع أو مائتين لسقناهما ولكنه يزيد عن ألف موضع بطرق متنوعة)(٤).

---

(١) للمزيد عن درر القرآن في تأصيل القياس. انظر: القياس في القرآن والسنة النبوية دراسة نظرية تطبيقية للباحث وليد بن علي ابن عبد الله، ط١، مكتبة الرشد الرياض، ١٤٢٦هـ.

(٢) الشافعي للإمام أبو زهرة السابق: ٢٤٥ (بتصرف).

(٣) إعلام الموقعين لابن القيم: ٣/٣ .

(٤) السابق نفسه: ١٦٩/١ .

والمتدبر لأحكام القرآن يجد ذلك جليًا ومنه قوله تعالى: ﴿يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلاَ يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ﴾ (البقرة: ١٨٥)، ﴿يُرِيدُ اللَّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمْ﴾ (النساء: ٢٨)، ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾ (الحج: ٧٨)، وفيها بيان أن الشريعة رفعت عن الناس الضيق والحرج بالتيسير والتخفيف وفيه مصلحتهم الدينية والدنيوية، وهكذا فإن مناهج الاستنباط من الاستحسان والعرف وسد الذرائع وإبطال الحيل والعمل بالاستصحاب وقول الصحابي وغير ذلك من أدلة استثنائية كالعمل بالأحوط (الاحتياط) أو العمل بالأخف أو الأشد والأخذ بأقل ما قيل كلها منهجيات أصولية استمدت من آيات القرآن الكريم والسنة المطهرة والتدبر والاستقراء(١) ولله در الشافعي حين قال: (من أدرك علم أحكام الله في كتابه نصًا واستدلالاً، ووفقه الله للقول والعمل بما علم منه فاز بالفضيلة في دينه ودنياه وانتفت عنه الريب ونورت في قبلة الحكمة واستوجب في الدين موضع الإمامة)(٢).

* * *

المبحث الرابع

أثر التدبر في تنمية الملكة التفسيرية

المطلب الأول: أثر التدبر في التفسير.

التفسير لغة: الإيضاح والتبيين، قال تعالى: ﴿وَلا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيراً﴾ (الفرقان: ٣٣).

والتفسير مصدر فسَّر مأخوذ من الفسر، قال صاحب المصباح المنير: "فسرت شيئًا

---

(١) انظر للمزيد في ذلك دراسة: التجديد في علم أصول الفقه في العصر الحديث، للدكتور محمد فتحي العتربي، الفصل الرابع، التجديد في تناول الأدلة الاجتهادية: ٣٢١- ٤٩٧، رسالة دكتوراه بكلية دار العلوم، سنة ٢٠١٠م، القاهرة.

(٢) الرسالة للشافعي، السابق: ١٩ .

فسرًا، أي بينته وأوضحته والتثقيل مبالغة(١).

وفي القاموس المحيط: الفَسّر – الإبانة وكشف المغطى كالتفسير(٢) للفظ المشكل.

وفي المفردات للراغب: الفسر إظهار المعنى المعقول والتفسير في المبالغة كالفسر(٣).

والتفسير اصطلاحًا: علم يعرف به فهم كتاب الله المنزل على نبيه محمد ﷺ وبيان معانيه واستخراج أحكامه وحكمه واستمداد ذلك من علم اللغة والنحو والتصريف وعلم البيان وأصول الفقه والقراءات ويحتاج لمعرفة أسباب النزول والناسخ والمنسوخ(٤)، وقيل: "علم يبحث فيه من أحوال القرآن الكريم من حيث دلالته على مراد الله تعالى بقدر الطاقة البشرية"، أقول: قول الزرقاني: "بقدر الطاقة البشرية"(٥)، احتراز وقيد إذ لا يمكن للبشر أن يصلوا إلى مراد الله من كلامه إلا بقدر طاقتهم وما يفتحه الله لهم من مكنونات الكتاب هذا من جهة، ومن جهة أخرى بعد استيفاء الشروط والآداب التي لابد من توفرها في المفسر حتى بعد قوله في كتاب الله تفسيرًا وبيانًا.

هذا وللتفسير أنواع مختلفة حسب ثقافة المفسر وبيئته العلمية، فهناك التفسير

---

(١) المصباح المنير للفيومي (٧٧٠هـ): ١٨٠ .

(٢) القاموس المحيط للفيروزآبادي (٨١٧هـ): ٥٨٧ .

(٣) المفردات للراغب الأصفهاني، السابق: ٣٩٤ .

(٤) البرهان في علوم القرآن للزركشي (ت ٧٩٤): ١٣/١، المكتبة العصرية، بيروت، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم.

(٥) مناهل العرفان في علوم القرآن للزرقاني: ٣/٢، ط(١)، دار إحياء التراث العربي.

بالمأثور(١)، والتفسير بالرأي(٢)، والتفسير الفقهي(٣)، والبياني(٤)، والتفسير الهدائي(٥)، والتفسير المقاصدي(٦)، وهناك تفسير الصوفية وتفسير الفلاسفة وتفسير الفقهاء وتفسير العلميين (التقسيم العلمي).

وهناك ألوان من التفسير ظهرت في العصر الحديث، منها اللون الأدبي واللون العلمي واللون المذهبي واللون الإلحادي، وهذه الأنواع والألوان التفسيرية ذكرها الدكتور محمد حسين الذهبي (رحمه الله) في كتابه القيم التفسير والمفسرون(٧).

والمتأمل في هذه الأنواع والألوان من التفاسير، يجد أن الصبغة التي صنعت بها لم تكن إلا أثر من آثار القرآن في المفسر بما يحقق ميوله وثقافته والقرآن الكريم فوق كل ميول وأوسع من كل ثقافة؛ لأنه كتاب الله العليم مَن وسع كل شيء علمًا، وإذا وقفنا وقفة يسيرة مع نوع واحد من أنواع هذه التفاسير وهو التفسير بالمأثور، سنجد أن ظهوره لم يكن سوى انعكاس الطبيعة المفسر عند تدبر القرآن وتأمله وتأثير بيئته الثقافية التي عنيت بالرواية عن النبي ﷺ أو أصحابه أو التابعين وتابعيهم بإحسان، وكما لهذا النوع من التفسير إيجابيات عليه من المآخذ ما يؤخذ عليه إذ دخلت

---

(١) ومثله تفسير جامع البيان للطبري وتفسير القرآن العظيم للحافظ علي ابن كثير، التفسير والمفسرون، ١٧٣/١، ١٧٧/١ .

(٢) ومثله التفسير الكبير مفاتح الغيب للفخر الرازي، التفسير والمفسرون السابق: ٢٠٦/١ .

(٣) كتب أحكام القرآن مثل الجصاص وابن العربي القرطبي.

(٤) ومثله تفسير الكشاف للزمخشري، والتفسير والمفسرون، ٣٠٤/١ .

(٥) ومثله تفسير المنار للإمام محمد عبده وتلميذه رشيد رضا.

(٦) ومثله تفسير التحرير والتنوير للإمام محمد الطاهر ابن عاشور.

(٧) انظر التفسير والمفسرون، د/ محمد حسين الذهبي (ت ١٩٧٧م): ٢/ ٤٥٠- ٤٥٤، ط٧، مكتبة وهبه القاهرة، ثلاثة أجزاء، ١٩٩٥م، وفيه تفصيل كبير لأنواع وألوان التفسير.

الإسرائيليات والموضوعات بشكل كبير مما أثر في توجيه القراءة توجيهًا لا يليق بالقرآن أحيانًا(١).

وقد ناقش الدكتور الذهبي حكم أقوال الصحابة في التفسير هل ترفع أو توقف، وذكر آراء من رفعها وآراء من أوقفها وترجيح الرفع على التوقيف(٢).

وهذا النوع من أنواع التفسير قد يختفي أثر التدبر تحت وطأة الرواية، لكنني أرجح أن التدبر كان السبب في البحث عن الرواية المؤيدة للتفسير والمؤكدة للمعنى الذي يراه المفسر في الآيات الكريمات.

لكنك تجد للتدبر أثر كبيرًا في التفسير الهدائي أو التفسير المقاصدي الأول عند الإمامين محمد عبده ورشيد رضا والثاني عند الإمام الطاهر ابن عاشور.

يقول الإمام: (التفسير الذي نطلبه هو فهم الكتاب من حيث هو دين يرشد الناس إلى ما فيه سعادتهم في حياتهم الدنيا وحياتهم الآخر، فإن هذا هو المقصد الأعلى وما وراءه تابع له أو وسيلة لتحصيله)، إلى أن قال: (فالتفسير الذي يجب على الناس على أنه فرض كفاية هو ذهاب المفسر إلى فهم مراد القائل من القول وحكمة التشريع في العقائد والأخلاق والأحكام على الوجه الذي يجذب الأرواح ويسوقها إلى العمل والهداية المودعة في الكلام ليتحقق فيه معنى قوله: "هدى ورحمة"(٣).

يقول أستاذنا الدكتور محمد شريف ويبدو أن هذه الفكرة كانت آسرة وجذابة واستمدت جذها وقوتها من واقع الأمة الذي عجل بظهور الاتجاه الهدائي في تفسير القرآن الكريم وأثبت أن التفكير لهداية القرآن في تحرير الفكر وتمجيد العقل وغفلة

---

(١) التفسير المأثور أهميته وضوابطه، د/ صفوت مصطفى خليلوفيتش: ٦١، ط (١)، دار النشر للجامعات، ١٩٩٩م.

(٢) انظر التفسير والمفسرون، السابق: ١/٩٤- ٩٦ .

(٣) تفسير المنار: ١/٢٥ .

المفسرين عن مقاصد القرآن التي تشير إليها آياته هي سبب تأخر المسلمين وانحطاطهم، وأن التنبه لهداية القرآن العامة في جميع جوانب الحياة والكشف عنها هما وسيلتا الإصلاح والتجديد في الأمم بل هما أساس التقدم منذ نزل القرآن الكريم(١).

ولك أن ترجع إلى تفسير المنار قوله تعالى: ﴿هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾ (البقرة: ٢)، وقوله تعالى: ﴿يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ﴾ (المائدة: ١٦)، وقوله تعالى: ﴿فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى﴾ (طه: ١٢٣)، وغير ذلك من آيات نصت على جانب الهداية في التنزيل لتدرك عظيم أثر التدبر في توجيه الآيات للتفسير الهدائي.

أما الإمام محمد الطاهر ابن عاشور فقد اهتم في تفسيره (التحرير والتنوير) ببيان الجانب المقاصدي في إطار الإصلاح الاجتماعي الإنساني من ناحية وفي إطار حل الإشكاليات التراثية التي وقف عليها من خبرته العلمية في العلوم العربية والشرعية وعلى رأسها علم أصول الفقه وإشكالياته، يقول الإمام ابن عاشور: "إن القرآن أنزله الله تعالى كتابًا لصلاح أمر الناس كافة رحمة لهم لتبليغهم مراد الله منهم، قال تعالى: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَاناً لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ﴾ (النحل: ٨٩)، فكان المقصد الأعلى منه صلاح الأحوال الفردية والجماعية والعمرانية"(٢).

ويقول رحمه الله في تفسير سورة الفاتحة، ولماذا سميت بأم الكتاب أو أم القرآن (وقد ذكروا لتسمية الفاتحة أم القرآن وجوهًا ثلاثة: أحدها أنها مبدوؤة ومنفتحة فكأنها أصله ومنشؤه يعني أن افتتاحه الذي هو وجود أول أجزاء القرآن قد ظهر فيها

---

(١) اتجاهات التجديد في تفسير القرآن الكريم في مصر، د/ محمد إبراهيم شريف: ٣١، ط (١) دار التراث، القاهرة، ١٩٨٢م.

(٢) التحرير والتنوير للإمام محمد الطاهر ابن عاشور: ٣٨/١، ط (١)، الدار التونسية للنشر، تونس، ١٩٨٤م.

فجعلت كالأم للولد في أنها الأصل والمنشأ فيكون أم القرآن تشبيهًا بالأم التي هي منشأ الوليد، والثاني أنها تشتمل محتوياتها على أنواع مقاصد القرآن وهي ثلاث أنواع: الثناء على الله ثناء جامعًا لوصفه بجمع المحامد وتنزيهه عن جميع النقائص ... فهذه هي أنواع مقاصد القرآن كله وغيرها تكملات لها لأن القصد من القرآن إبلاغ مقاصده الأصلية وهي صلاح الدارين(١).

وهكذا فإن المتأمل في كتاب التحرير والتنوير يجد الإمام الطاهر ابن عاشور قد اهتم منذ بدايته حتى نهايته ببيان مقاصد القرآن الكريم ودورها في حياة الأمة إصلاحًا وتوجيهها وحلاً للكثير من والإشكالات العلمية والعملية وأثر ذلك التدبير العميق والتأمل الدقيق في المعاني والمباني والله تعالى يعطي المرء قدر اجتهاده، ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ﴾ (العنكبوت: ٦٩).

المطلب الثاني: أثر التدبر في تنمية الملكة التفسيرية.

قلنا أن الملكة صفة أو هيئة – راسخة في النفس تتحقق بالاكتساب، كما أنها قد تكون موهوبة تعين صاحبها على استنتاج الأفكار من مآخذها واستخراج الأحكام من مواردها، والملكة التفسيرية – كما عرفناها سابقًا – قدرة روحية وعلمية تعين على كشف المعاني والأسرار المكنونة في الكتاب العزيز.

والملكة المكتسبة تنمى بالتأمل والتدبر والخشوع بعد التهيؤ والتطهر، ولأن القرآن الكريم لا يخلق عن كثرة الرد ولا تنقضي عجائبه فهو كريم في عطائه لكل من ينطرح بين يديه يلتمس منه الهداية والرشاد في أي ميدان كان علمي أو عملي.

ولبيان أثر التدبر في تنمية الملكة التفسيرية لدى المفسر أو لدى التناول للقرآن الكريم نقف عند دراسة حديثة في صدورها قديمة في مصدرها وأفكارها وهي دراسة

---

(١) التحرير والتنوير، السابق: ١٣٣/١ .

الدكتور سامح القليني سلسلة أفلا يتدبرون القرآن – الجلال والجمال في رسم الكلمة وعلاقته بالجرس والنظم في القرآن الكريم[١]، والتي حازت إعجاب كل من قرأها، وتأمل لها من عمق التدبر ولطف الفكر وقوة الاستنباط الذي حققه المؤلف وحل به كثير من إشكاليات القراءة في القرآن الكريم وإليك نموذج.

أولاً:[٢] في قوله تعالى: **﴿وَمَا أَنتَ بِهَادِي الْعُمْيِ عَن ضَلالَتِهِمْ إِن تُسْمِعُ إِلا مَن يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا فَهُم مُّسْلِمُونَ﴾** (النمل: ٨١)، وقوله تعالى: **﴿وَمَا أَنتَ بِهَادِ الْعُمْيِ عَن ضَلالَتِهِمْ إِن تُسْمِعُ إِلا مَن يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا فَهُم مُّسْلِمُونَ﴾** (الروم: ٥٣) فالمتأمل في الآيتين يجد أن رسم كلمة (هادي) جاءت الياء في الأولى وبدون الياء، في الثانية: (هاد) فلماذا أثبتت الياء في سورة النمل وحذفت من سورة الروم؟ مع أن الآية واحدة في السورتين؟ وبالتدبر والتأمل في أسرار النظم والرسم نجد أن الهداية في الآية الأولى كانت الهداية الحسية الظاهرة، والثانية الهداية المعنوية القلبية، وبتوسيع النظر في السياق نجد أن الآيتين قد سبقتنا بآيتين هما: **﴿إِنَّكَ لا تُسْمِعُ الْمَوْتَى وَلا تُسْمِعُ الصُّمَّ الدُّعَاء إِذَا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ﴾** (النمل: ٨٠)، وقوله تعالى: **﴿فَإِنَّكَ لا تُسْمِعُ الْمَوْتَى وَلا تُسْمِعُ الصُّمَّ الدُّعَاء إِذَا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ﴾** (الروم: ٥٢)، يقول الدكتور سامح القليني: (في سورتي النمل والروم) آيتان تكاد صياغتهما أن تكون واحدة ومع هذا التشابه الكبير وردت فيها كلمة واحدة مرتين، تلك الكلمة هي أسم الفاعل (هادي) قبله حرف جر الباء والألف مخفاة في رسم الكلمتين في إحدى السورتين وردت محذوفًا منها الباء (بهد) وفي الأخرى أثبت فيها الياء بهدى ولن تحذف والآيتان هما:

---

(١) انظر: الجلال والجمال في رسم الكلمة وجرسها في القرآن الكريم، د/ سامح القليني، ط (٣)، مكتبة وهبة، القاهرة، ١٤٣١هـ، ٢٠١٠م.

(٢) الجلال والجمال، السابق: ١/١٩٣- ١٠٢ .

﴿وَمَا أَنتَ بِهَادِي الْعُمْيِ عَن ضَلالَتِهِمْ إِن تُسْمِعُ إِلا مَن يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا فَهُم مُّسْلِمُونَ﴾ (النمل: ٨١).

﴿وَمَا أَنتَ بِهَادِي الْعُمْيِ عَن ضَلالَتِهِمْ إِن تُسْمِعُ إِلا مَن يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا فَهُم مُّسْلِمُونَ﴾ (الروم: ٥٣).

وخلاصة: ما يقال فيهما إن ما أثبت فيها الياء كان المراد منه الهداية الحسية الظاهرة وهي محالة في عُمي الأبصار (هدى العمى).

أما ما حذف منه الياء فالمراد به الهداية القلبية الكلية وهذا لا يختص به إلا الله ﷻ.

وهاتان الآيتان لهما في النظم القرآني المعجز شأن هو العجب حقًا فقد سبقت كل منهما بآية تكررت بلفظها ومعناها مع اختلاف في حرف واحد مرتين مرة قبل آية النمل ومرة قبل آية الروم.

وأقول: في الحقيقة – القول لمؤلف الجلال والجمال – لم يكن علماؤنا القدامى والمحدثين ومنهم أستاذنا يعني د/ المطعني موفقين في كشف سر هذا الجمال مما يجعلنا نقف هذه الوقفة التكليمية وهي:

(١) **﴿فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّكَ عَلَى الْحَقِّ الْمُبِينِ، إِنَّكَ لا تُسْمِعُ الْمَوْتَى وَلا تُسْمِعُ الصُّمَّ الدُّعَاء إِذَا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ، وَمَا أَنتَ بِهَادِي الْعُمْيِ عَن ضَلالَتِهِمْ إِن تُسْمِعُ إِلاَّ مَن يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا فَهُم مُّسْلِمُونَ﴾** (النمل: ٧٩- ٨١).

(٢) **﴿وَلَئِنْ أَرْسَلْنَا رِيحاً فَرَأَوْهُ مُصْفَرّاً لَّظَلُّوا مِن بَعْدِهِ يَكْفُرُونَ، فَإِنَّكَ لا تُسْمِعُ الْمَوْتَى وَلا تُسْمِعُ الصُّمَّ الدُّعَاء إِذَا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ، وَمَا أَنتَ بِهَادِي الْعُمْيِ عَن ضَلالَتِهِمْ إِن تُسْمِعُ إِلا مَن يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا فَهُم مُّسْلِمُونَ﴾** (الروم: ٥١- ٥٣)(١).

---

(١) ملحوظة: نلاحظ أن كلمة (بهدِ، بهدى) تتفقان في إخفاء الألف بعد الهاء ولكنهما تختلفان في وضع الياء أخر الكلمي في سورة النمل وحذفها من سورة الروم، أما بخصوص إخفاء الألف في الآيتين فذلك لوجود قراءتين لهما: القراءة باسم الفاعل (بهاد) والقراءة بالفعل (تهدى، تهتدي)، وهذا ما يقوله علماء القراءات والمفسرون. (وهذه القراءات – كما قلنا – تشرح السبب في حذف الألف بعد الهاء – إضافة إلى معنى الهداية القلبية في هذه الكلمة – ولكنها لا تشرح سبب حذف الياء في أخر الكلمة لتكون (بهد) في سورة الروم والتي سنعيشها في بحثنا هذا).

وخلاصة: ما يقال فيهما أن ما أثبت فيه الباء كان المراد منه الهداية الحسية الظاهرة وهي محالة في عمى الأبصار، أما ما حذف منه الياء (بهد) فالمراد به الهداية القلبية الكلية، وهذا لا يختص به إلا الله ﷻ، ونكرر أن سياق آيات الروم عن عتاة المجرمين الميئوس منهم وليس في قلبهم ذرة من الاستعداد للهداية فهي لا يتحدث عن الإكمال والإتمام بل تتحدث عن هذا المنشأ وهذه البداية وكأنك في النمل تكمل البناء (بهدى) وفي الروم تبدأ به من الصفر ومن عدم الظهور (بهد).

فما أروعه وما أبهاه وما أعظمه هذا الرسم المبهر مع النظم المعجز وهذا الجلال والجمال.

وهكذا تبين لنا أن للتدبر أثرًا كبيرًا في الكشف عن مكنونات الكتاب المجيد بل وله أثر كبير في حل العديد من الإشكاليات العلمية أيضًا، ومن ذلك ما وقف أمامه صاحب كتاب الجلال والجمال في مسألة النسخ في القرآن الكريم(١)، ومسألة المجاز(٢) في القرآن الكريم، وكان التدبر سبيلاً لحل تلك الإشكاليات.

* * *

الخاتمة

بعد الوقوف على أثر التدبر في تنمية الملكة الفقهية والتفسيرية، يرى الباحث أن التدبر في القرآن الكريم ينبغي أن يكون له فقهه الخاص وذلك الفقه الذي يبين لقارئ القرآن وتاليه الطريق المعينة على استخراج مكنوناته وأسراره وآدابه وأحكامه وحكمه وأمثاله ويرى الباحث أن محددات فقه التدبر يعتمد على:

أولاً: البعد عن المعاصي والذنوب التي تحيل بين المرء وقلبه وتغلق على القلوب

---

(١) الجلال والجمال، السابق: ١/٤٣٧- ٤٤٢ .

(٢) الجلال والجمال، السابق: ٢/٧٥٧ وما بعدها.

وسائل التلقي بما ترسبه عليه من ران، قال تعالى: ﴿كَلا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ (المطففين: ١٤)، وقال تعالى: ﴿أَفَلا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا﴾ (محمد: ٢٤)، ولأن المعصومين هم الأنبياء وكل ابن آدم خطاء وخير الخطائين التوابون، فعلى المسلم أن يديم التوبة والاستغفار صباح مساء، وذلك هديه ﷺ الذي كان يتوب إلى الله في اليوم أكثر من سبعين مرة وكان الاستغفار ملازمًا له في مجالسه بل وجميع أحواله.

ثانيًا: البعد عن الرأي واتخاذ أحكام مسبقة قبل قراءة القرآن وتدبره، وذلك لأن الرأي غالبًا مذموم والأحكام المسبقة تجعل القراءة ذات هدف محدد وهو البحث على مؤديات الرأي، وقد روى عن عمر الفاروق ﷺ أنه خلا بنفسه ذات يوم فجعل يحدث نفسه: كيف تختلف الأمة ونبيها واحد وقبلتها واحدة؟ فأرسل إلى ابن العباس فقال له: "كيف تختلف الأمة ونبيها واحد وقبلتها واحدة؟ فقال ابن العباس: يا أمير المؤمنين: "إنا أنزل علينا القرآن فقرأناه وعلمنا فيم نزل وإنه سيكون بعدنا أقوام يقرؤون القرآن ولا يدرون فيم نزل فيكون لهم رأي فإذا كان لهم فيه رأي اختلفوا فإذا اختلفوا اقتتلوا، قال: فزجره عمر وانتهره، فانصرف ابن عباس ونظر عمر فيما قال فعرفه فأرسل إليه فقال أعد عليّ ما قلت فعرف عمر قوله(١). وفرق كبير بين من ينطرح بين يدي القرآن ليجد حلاً لإشكاله العلمي أو العملي ومن يذهب إليه ليبحث عن مؤدياته لمذهبه أو رأيه أو تفسيره.

ثالثًا: الفهم العميق لإشكالية الناسخ والمنسوخ والتي توسع فيها الأصوليون والمفسرون في جعلها حكمًا في كل تعارض موهوم أو ترجيح مظنون وبالتأمل والتدبر نجد الكتاب قد أحكمت آياته ثم فصلت من لدن حكيم خبير وإن التدرج في الأحكام

---

(١) أخرجه أبو عبيد في فضائل القرآن: ٤٥- ٤٦، وسعد بن منصور في سننه: ١٧٦/١. وانظر: أفلا يتدبرون القرآن معالم منهاجية في التدبر والتدبير، د/ طه جابر العلواني: ٩٣ .

والعمل بالمقاصد ومراعاة أحوال المكلفين فيه ممدوحة عن دعوى النسخ بغير دليل قطعي إلا ما كان بمعناه الواسع الذي يدخله التخصيص والاستثناء والتدرج وغير ذلك(١).

رابعًا: أن يقوم التدبير على استجماع "قوى الوعي" من المتدبر وذلك بالخشوع الكامل والتجرد التام واستحضار الذهن وحضور القلب وتطهير النفس من الأهواء والشهوات والنزوات حتى يتهيأ المسلم لاستقبال الوحي ومس مكنوناته وأسراره، قال تعالى: ﴿**إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ، فِي كِتَابٍ مَّكْنُونٍ، لا يَمَسُّهُ إِلا الْمُطَهَّرُونَ**﴾ (الواقعة: ٧٧- ٧٩)، وقال ﷺ: "إن هذا القرآن مأدبة الله فاقبلوا مأدبته ما استطعتم إن هذا القرآن حبل الله والنور المبين والشفاء النافع عصمة لمن تمسك به، ونجاة لمن اتبعه لا يزيغ فيستعتب ولا يعوج فيقوم ولا تنقضي عجائبه ولا يخلق عن كثرة الرد"(٢).

خامسًا: أن القرآن الكريم لا يخضع للقراءة التجزيئية التي تبحث عن دليل بعينه أو مصطلح موضوعي بل ينبغي أن تكون القراءة للقرآن على أنه كالكلمة الواحدة التي لا يمكن الاستغناء عن أحد حروفها هذا على المستوى الكلي من الفاتحة إلى الناي وعلى مستوى السورة الواحدة وهذه القراءة لا تنفي النصيف الموضوعي ولا المناسبات.

سادسًا: أن نؤمن بأن للقرآن مداخل منهاجية يجب اصطحابها عند التلاوة ومنها مدخل القيم العليا (التوحيد — التزكية — العمران)، مدخل الوحدة البنائية، مدخل العلاقة بين الله تعالى وبين الإنسان والكون، مدخل عالمي الغيب وعالم الشهادة، مدخل العبودية والإلهية، مدخل عوالم الأمر والإرادة والمشيئة، مدخل التدافع بين الحق والباطل، ومدخل تصنيف البشر حسب موقفهم من الرسالات، مدخل السياق واللغة والتناسب، مدخل قيام الحضارات وتراجعها، مدخل تثوير القرآن مدخل الأزمة

---

(١) انظر: التجديد في علم أصول الفقه السني في العصر الحديث بين النظرية للباحث: ٢١٩- ٢٢٦ (مرجع سابق) وفيه مناقشة علمية لفكرة النسخ بين المؤيدين والمعارضين وموقف الباحث في قضية النسخ.

(٢) أخرجه الحاكم عن ابن مسعود: ١/٤٢٥ .

والتوجيه إلى حلها، مدخل التنزيل على القلب وهو محور التذكير والتدبر، هذا مع التسليم بأن التدبر جهد بشري يقوم على التغفل والتفكر وكل مجتهد فيه يحصل على ما يوفقه الله إليه بعد التلاوة والقراءة والتهيؤ باستجماع قوى الوعي لديه وإنه ليسير على من يسيره الله تعالى عليه(١).

سابعًا: أن يتقن المتدبر بأن القرآن جامع مانع لكل ما تواجهه البشرية وما ستواجهه من أشكال التطور والتحول والنمو وأنه المخرج من كل الفتن الظاهرة والباطنة وأنه كما كان رائدًا للأمة في نهضتها الأولى عبر أجيال التلقي والرواية والفقه والتدوين فهو الذي يملك أسباب نهوض الأمة المعاصرة متى توجهت إليه وأخلصت رغبتها في إيجاد الحلول لأزمتها بين يديه، قال تعالى: **﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾** (الحجرات: ١).

وفي خاتمة هذا البحث يقف الباحث على مجموعة من النتائج:

أولها: التدبر يعني التأمل والتفكر والتبصر الشامل المؤدي إلى الوصول للطيف الخطاب دلالات الألفاظ مع الانتفاع بالعظة والظفر بالفكرة وأن فقه التدبر يعني التبصر بالمحددات المعينة على ذلك التدبر من مداخل منهاجية وشروط إجرائية.

ثانيًا: أن التدبر في القرآن الكريم له أثر كبير في تنمية الملكة الفقهية وذلك بالوقوف على الأحكام والقواعد والمناهج المعينة للفقه على حسن الاستنباط والاستدلال.

ثالثًا: أن الملكة التفسيرية تحتاج إلى استعداد روحي واجتهاد علمي يعين على الكشف عن مكنونات الكتاب وأسراره.

رابعًا: أن التدبر هو المقصود الأعظم والمطلوب الأهم من عملية التنزيل فهو وسيلة التفاعل الوجداني وطريق اكتساب الخشوع والعلم والسكينة وزيادة الإيمان وتحصيل الهداية والتلذذ بالخطاب وتحقيق الشفاء الحسي والمعنوي، وأن للتدبر وسائل

---

(١) انظر: أفلا يتدبرون القرآن السابق: ١٢١- ١٥٣ وفيه تفصيل تلك المداخل.

أهمها الاستعداد ومحبة الله والتدرج في سلم الترقي لعلياء القرآن والبعد عن الذنوب والمعاصي والإيمان الكامل بقدرة القرآن على إيجاد الحلول بسؤاله وتثويره.

خامسًا: أن الفقه لا ينمو ولا يزدهر إلا في بيئة فكرية ونفسية متوازنة يعين صاحبها على حسن الفهم وتقدير الحكم وهو ما بينه القرآن الكريم في كثير من قصصه وأحكامه.

سادسًا: أن القرآن الكريم كما بيَّن بالتدبر سبل البيان كان معنيًا على بيان الأحكام.

سابعًا: أن الاستقراء التام وسيلة من وسائل التدبر وبه توصل الفقهاء والعلماء إلى مقاصد القرآن العليا والكلية والجزئية كما توصلوا إلى الكثير من القواعد الفقهية والمنهجية.

ثامنًا: أن عجائب القرآن لم تنقض بعد، وأن أسراره لم تكشف كلها وأنه مع عدم اصطدامه مع الموروث الثقافي لا يعجز أمام الأسقف المعرفية الجديدة.

تاسعًا: أن الملكة التفسيرية مهما بلغ صاحبها من النضج والتمام لا تعدو عن كونها قدرة بشرية محدودة في التعامل مع النص القرآني.

عاشرًا: أن للتدبر فقهًا يعتمد على الفهم العميق واستجماع قوى الوعي بالخشوع الكامل والتجرد التام مع التهيؤ والتطهر حتى يكون المسلم أهلاً لجني ثمار ذلك التدبر، والمساهمة في حل الإشكالات العلمية والمشكلات الواقعية والله تعالى من وراء القصد.

الباحث

طنطا ٢٢ من المحرم سنة ١٤٣٢هـ

٢٨ من ديسمبر سنة ٢٠١٠م

* * *

المصادر والمراجع

القرآن الكريم

- اتجاهات التجديد في تفسير القرآن الكريم في مصر، د/ محمد إبراهيم شريف، ط١، دار التراث، القاهرة، سنة ١٩٨٢م.
- أثر تعليم القرآن في تنمية الملكة الفقهية، د/ الوليد آل فريان، بحث على الموسوعة الشاملة، شبكة الإنترنت.
- أحكام القرآن، لابن العربي الأندلسي، (ت ٥٤٣هـ)، طبعة دار المعرفة، بيروت (ب ت)، تحقيق: محمد علي البجاوي.
- الإحكام في أصول الأحكام، للآمدي، ط١، دار الحديث، القاهرة، ودار الكتب العلمية، وبيروت، سنة ١٤٠٠هـ.
- أساسيات القياس في التربية والتعليم، د/ غانم العبيدي، ود/ حنان الجبوري، ط١، دار العلوم والنشر، الرياض، سنة ١٤٠١هـ.
- أسباب النزول، للسيوطي، طبعة دار الرشيد، بيروت، دمشق، سنة ١٤٠٥هـ.
- الأشباه النظائر، لتاج الدين السبكي، (ت ٧٧٠هـ)، ط١، دار علم الكتاب، بيروت، ١٤١١هـ.
- أصول السرخسي، ط١، دار المعارف، بيروت (ب ت)، تحقيق أبو الوفا الأفغاني.
- أصول الفقه الإسلامي، د/ وهبة الزحيلي، ط٣، دمشق، سنة ٢٠٠٥م.
- أصول الفقه، للشيخ محمد الخضري، طبعة دار الحديث، القاهرة، سنة ٢٠٠٣م.
- إعلام الموقعين عن رب العالمين، لابن القيم، (ت ٧٠١هـ) ط دار الجيل، بيروت، سنة ١٩٧٣م.
- أفلا يتدبرون القرآن، د/ طه جابر العلواني، ط١، دار السلام، القاهرة، سنة ٢٠١٠هـ.

- اقتضاء الصراط المستقيم، لابن تيمية، ط٢، مكتبة السنة المحمدية، القاهرة.

- البرهان في أصول الفقه، الإمام الجويني، (٤٧٨هـ)، ط٢، دار إحياء التراث، بيروت، سنة ١٤٠٠هـ، تحقيق: د/ عبد العظيم الديب.

- البرهان في علوم القرآن، للزركشي، ط٣، دار الفكر، بيروت، سنة ١٤٠٠هـ، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم.

- التبيان في أقسام القرآن، لابن القيم (ت ٧٥١هـ)، ط١، دار المعرفة، بيروت، سنة ١٣٥٢هـ، تعليق محمد حامد الفقي.

- التجديد في علم أصول الفقه السني في العصر الحديث بين النظرية والتطبيق، د/ محمد فتحي العتربي، رسالة دكتوراه بدار العلوم، القاهرة، سنة ٢٠١٠م.

- التحرير والتنوبر، للإمام محمد الطاهر بن عاشور، ط١، الدار التونسية للنشر، سنة ١٩٨٤م، تونس.

- تدبر القرآن، د/ سليمان السنيدي، ط٢، المنتدى الإسلامي ومجلة البيان، الرياض، سنة ٢٠٠٢م.

- تعليم تدبر القرآن أساليب علمية ومراحل منهاجية، د/ هاشم الأهدل، ط١، مركز الدراسات والمعلومات القرآنية، معهد الإمام الشاطبي، جدة، سنة ١٤٢٩هـ.

- التفسير بالمأثور أهميته وضوابطه، د/ صفوت خليلوفيتش، ط١، دار النشر للجامعات، سنة ١٩٩٩م.

- التفسير والمفسرون، د/ محمد حسين الذهبي، مكتبة وهبه، القاهرة، سنة ١٩٩٥م.

- تقرير القواعد، لابن رجب الحنبلي، ط دار المعرفة، بيروت (ب ت).

- تكوين الملكة الفقهية، د/ محمد عثمان شبير، كتاب الأمة رقم (٧٢) وزارة الأوقاف القطرية، سنة ١٤٢٠هـ.

- جامع البيان في تأويل آي القرآن، للإمام محمد بن جرير الطبري، ٣١٠هـ، طبعة البابي الحلبي.

- جامع العلوم والحكم، لابن رجب الحنبلي، ط١، دار بن كثير، دمشق، بيروت، تحقيق: د/ ماهر ياسين الفحل، سنة ١٤٢٩هـ.

- جامع بيان العلم، لابن عبد البر، ط١، المكتبة السلفية، المدينة المنورة، سنة ١٣٨٨هـ.

- الجامع لأحكام القرآن، للإمام القرطبي، (ت ٦٧١هـ)، دار إحياء التراث العربي، بيروت، سنة ١٩٦٧م.

- الجلال والجمال رسم الكلمة وجرسها في القرآن الكريم، د/ سامع القلسيني، ط٣، مكتبة وهبه، القاهرة، سنة ٢٠١٠م.

- الدر البهية في التعريف بالقواعد الفقهية، د/ محمد الحفناوي، طبعة مكتبة قرية طنطا (ب ت).

- الرسالة للإمام الشافعي، ط٢، مكتبة التراث، القاهرة، سنة ١٩٧٩م، تحقيق: العلامة أحمد شاكر.

- زاد المعاد في هدي خير العباد، لابن القيم، (ت ٧٥١هـ)، ط٨، مكتبة الرسالة ومكتبة المنار، بيروت، سنة ١٤٠٥هـ، تحقيق: شعيب الأرناؤوط.

- الشافعي، الإمام محمد أبو زهرة، طبعة دار الفكر العربي، القاهرة، سنة ١٩٩٦م.

- شرح القواعد الفقهية، للشيخ أحمد الزرقا، ط٦، دار القلم، دمشق، سنة ٢٠٠١م.

- شرح الكوكب المنير، للفتوحي، نشر جامعة أم القرى، سنة ١٤٠٨هـ.

- الفقه المقاصدي عند الإمام الشاطبي وأثره في مباحث أصول التشريع الإسلامي، د/ أحسن لحساسنة، ط١، دار السلام، القاهرة، سنة ٢٠٠٨م.

- قواعد الأحكام في مصالح الأنام، للعز بن عبد السلام، طبعة دار القلم، دمشق، سنة ٢٠٠٠م.

- القواعد النورانية، لابن تيمية، ط مكتبة المعارف، سنة ١٤٠٤هـ، الرياض.

- القياس في القرآن والسنة، د/ وليد بن علي بن عبد الله، ط١، مكتبة الرشد، الرياض، سنة ١٤٢٦هـ.

- كشف الأسرار للبزدوي، ط١، دار الكتاب العربي، بيروت، سنة ١٩٧٤م.

- المستصفى في أصول الفقه، للإمام الغزالي، (ت ٥٠٥هـ)، ط١، دار الكتب العلمية، سنة ١٤١٣هـ، تحقيق: محمد عبد السلام الشافعي.

- مسلم الثبوت، ابن عبد الشكور (ت ١١١٩هـ)، طبعة الفكر، بيروت (ب ت).

- المغني في أصول الفقه، لجلال الدين الخبازي، (ت ٦٩١هـ)، طبعة جامعة أم القرى، تحقيق: د/ محمد مظهر.

- مفتاح دار السعادة، لابن القيم، (ت ٧٥١هـ)، ط١، دار الكتب العلمية، بيروت (ب ت).

- مقاصد الشريعة للطاهر ابن عاشور، ط١، دار البصائر، سنة ١٩٩٨م، ماليزيا، تحقيق: د/ محمد الطاهر الميساوي.

- مناهل العرفان في علوم القرآن، للزرقاني، ط١، دار إحياء التراث العربي.

- الموافقات في أصول الشريعة، للإمام الشاطبي، الأندلسي، (ت ٧٩٠هـ)، دار المعرفة، بيروت (ب ت)، تحقيق: الشيخ عبد الله دراز.

- نظرية المقاصد عند الشاطبي، د/ أحمد الريسوني، طبعة المعهد العالمي للفكر الإسلامي سلسلة الرسائل الجامعية، سنة ١٩٩٢م.

- نيل المرام في نفسير آيات الأحكام، لصديق خان، نشر مكتبة المدني، القاهرة، سنة ١٣٩٩هـ.

- هداية القرآن في الآفاق والأنفس وإعجازه العلمي، د/ محمد إبراهيم شريف، طبعة مطبعة المدينة، دار السلام، مصر، سنة ١٤٠٦هـ.

كتب اللغة والمعاجم:

- التعريفات، للجرجاني، طبعة مصطفى الحلبي، سنة ١٣٥٧هـ.
- القاموس الفقهي، لسعدي أبو جيب، ط١، دار الفكر، دمشق، ٢٠٠٣م.
- القاموس المحيط، للفيروزآبادي، (ت ٨١٦هـ)، الهيئة المصرية العامة للكتاب، سنة ١٤٠٠هـ.
- لسان العرب، لابن منظور المصري، (ت ٧١١هـ)، ط دار صادر، بيروت (ب ت).
- مختار الصحاح، للرازي، طبعة المركز العربي للثقافة والعلوم، سنة ١٩٩٥م.
- المصباح المنير، للفيومي، (ت ٧٧٠هـ)، طبعة دار المعارف، ١٩٧٧م.
- المعجم الجامع للتعريفات الأصولية، د/ زياد حمدان، ط١، مؤسسة الرسالة ناشرون، سنة ٢٠٠٦م.
- معجم الفروق اللغوية، لأبي هلال العسكري، (ت ٣٩٥هـ)، ط٣، دار الكتب العلمية، بيروت، سنة ٢٠٠٥م، تحقيق: محمد باسل عيون السود.
- المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية، القاهرة، نسخة مصورة، نشر دار العلوم، القاهرة، سنة ١٩٩٣م.
- معجم لغة الفقهاء، د/ محمد رواس قلعجي وآخرون، ط١، دار النفائس، بيروت، ١٩٩٦م.
- مفردات القرآن، للراغب الأصفهاني، ط دار الكتب العلمية، بيروت.

* * *